

نجيب محفوظ

جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٨

أَكْفَلُ طَيْبَةٍ





كِفَاةُ طَيِّبَةٍ



مطبعة خان بكنه ملهز

# كفاح طيبة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه



## سيكنرع

### ١

كانت السفينة تصعد في النهر المقدس ، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجلييلة ، يحث بعضها بعضا منذ القدم كأنها حادئات الدهر في قافلة الزمان ، بين شاطئين انتثرت على أديمهما القرى ، وانطلق النخل جماعات ووحدا ، وترامت الخضرة شرقا وغربا ، وكانت الشمس تعلى كبد السماء ترسل أسلاكها من النور إذا غمر النبات رف رفيفا ، وإذا مس الماء تلالاً لألاء ، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس رمز الشمال بعين التساؤل والإنكار .

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة ، مستدير الوجه ، طويل اللحية ، أبيض البشرة ، يرتدى معطفا فضفاضاً ويقبض يمينه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبي ، جلس بين يديه رجلان في مثل بدائته وزيه ، تدانى بينهم جميعاً روح واحدة ، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضنامهما الملل والتعب ويلقى على من يضادفه من الصيادين نظرة شرزاء . وكأنه برم بالصمت فتحول إلى رجليه وتساءل قائلاً :

— ترى هل ينفخ غدا في الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل الخيم على ربوع الجنوب ، وتفرع هذه الدور المظلمة ، ويخلق نسر الحرب في هذا الجو الآمن ؟ .. آه .. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم ..

فhez الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما :

— لتكن حرب أيها الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه تاجا كالملك وينى القصور كالفرعين ، ويسير فى طيبة مرحا لا يبالي شيئا .  
فجعل الحاجب يصرف بأنياه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدل على الحق والغيط وقال :

— لا يوجد حاكم مصرى سوى حاكم إقليم طيبة هذا ، فإذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد ، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه .

قال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا يئس أبدا من أن يصير يوما حاكما لمدينة عظيمة :

— إن هؤلاء المصريين يكرهونا ..

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة :

— نعم .. نعم .. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يظهرون الطاعة ويضربون الكراهية .. لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف ..

فابتسم الرجلان أول مرة ، وقال ثانيهما أيضا :

— بورك رأيك أيها الحاجب الحكيم ، فإن السوط وسيلة التفاهم التى لا تجدى سواها مع المصريين ..

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة ، فما يسمع إلا وقع المجاديف على سطح الماء ، ثم لاحت من أحدهم التفاتة إلى زورق صيد يقف فى وسطه فتى مقتول الساعدنين ، عارى الجسد إلا من وزرة تغطى وسطه ، وقد لفحت الشمس بشرته ، فقال بتعجب :

— كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم ..

فقال الحاجب بسخرية:



— لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون ..

— حقا .. إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى ..

قال الحاجب :

— حدثنى بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال : إنهم على لونهم وغريهم ذوو صلف وكبرياء ، وإنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة ، وإن بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين .. رباه .. إني أعرف الدواء لكل هذا .. لا ينقص إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم .

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول ، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق :

— انظر .. أترى طيبة ؟ هذه طيبة ! ..

فنظروا جميعا إلى حيث يشير الرجل ، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم ، بدت خلفه رعوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السماوية ، ورثيت في ناحيتها الشمالية جدران معبد آمون الشاهقة ، رب الجنود المعبود . فما وقعت العين فيها إلا على مارد عظيم يتعالى إلى السماء ، فأخذ الرجال ، وقطب الحاجب الأكبر وتمم قائلا :

— نعم .. هذه طيبة .. وقد أتيحت لي رؤيتها من قبل . وما أزداد على الأيام إلا رغبة في أن تنعوا الهام لمولانا الملك ، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها . فقال أحد الرجلين :

— وأن يعبد بها ربنا ست المعبود ..

وخفت السفينة من سرعتها ، ومضت تدنو من الشاطئ رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن ، التي تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس . وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم ، وأما غرى الشاطئ الآخر ، فتجتم مدينة الأبدية ، حيث يرقد الخالدون في الأهرام والمصاطب والمقابر ، تغشاهم جميعا وحشة الموت ..

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة ، تشق سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجارية ، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها ، وصورة اللوتس التي تزين مقدمها ، حتى حاذت الرصيف ، فألقت كلابها الضخم ، وقصد إليها بعض الحراس ، وانتقل إليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض . وسأل أحد رجالها قائلاً :

— من أين انحدرت هذه السفينة ؟.. وهل تحملون تجارة ؟..

فعياه الرجل ، وقال « اتبعنى » واصطحبه إلى المقصورة ، حيث أدرك الضابط أنه مائل بين يدى حاجب كبير من حجاب قصر الشمال ، قصر ملك الرعاة كما يدعونه فى الجنوب ، فانحنى احتراماً وأدى التحية العسكرية . ورفع الحاجب يده ليرد التحية فى صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية :

— أنا رسول فرعون ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الرب ست ، مولانا أبو فيس ، إلى حاكم طيبة الأمير سيكتنرع لأؤدى إليه ما حملته من البلاغ . وأصغى الضابط إلى الرسول فى انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى .

ومضت ساعة من الزمان ، ثم جاء السفينة وجل وقور ، يميل إلى القصر ،  
بادى النحافة ، بارز الجبهة ، فأنحنى انحناء وقور للرسول ، وقال بصوت هادىء  
النبرات :

— إن الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب .  
فحنى الرجل رأسه الفخم وقال بصوته الغليظ :  
— وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى .  
فقال حور :

— سر مولاي أن يستقبلك فى الحال .  
فأبدى الرسول حركة وقال : « هلم بنا » . وتقدمه الحاجب حور وتبعه  
الرجل يسير فى خطا وثيدة ، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له  
الرجلان إجلالا ، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحق : « أما كان ينبغى  
لسيكنترع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبو فيس ...؟ » وضايقه جد  
المضايقة أن يسلك الرجل فى استقباله سلوك الملوك . وغادرا السفينة بين صفيين  
من الجند والضباط ، ورأى خيان على الشاطئ ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه  
عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى ، وأدى له الجند التحية ، فردها  
بكبرياء ، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور ، ثم تحرك الموكب الصغير فى  
طريقه إلى قصر حاكم الجنوب ، وتحركت عينا خيان فى محجريهما ذات اليمين  
وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتمائيل والسيل والقصور والأسواق  
وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات : فالعامه بأجسامهم شبه  
العارية ، والضباط بمعاطفهم الأنيقة ، والكهنة بأثوابهم الطويلة ، والسراة

بعباءاتهم الفضفاضة ، والنساء بأزيائهن الجميلة ، فكان كل شيء يشهد لعظمة المدينة ، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبو فيس . وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة وأن الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن في برود وجهود ، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض ، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذلك الاستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله ، وساء أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها .. وغازله وأحنقه أن يحكم قومه مائتى عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس .

ثم بلغ الموكب ميدان القصر ، وكان ميدانا فسيحا مترامى الأركان ، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش ، ويبدو فى مكانه الوسيط القصر الجليل يهر الأنظار مشهده الرائع ؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه ، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره ، ويصطفون صفين لدى بابه الكبير ، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية ، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا : هل يستقبلنى سينكنرع وعلى رأسه التاج الأبيض ؟ .

إنه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم ، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم ، فهل يلبس تاج الجنوب أمامى ؟ . هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سينكنرع ؟ ... وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل ، ووجد فى استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعونى وكبار الضباط ، فأدوا له التحية جميعا ، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعونى ، وكانت الردهة المؤدية إلى باب البهو مزينة الجانبين بتأثيل ألى الهول ، وفى أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء . وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له ، فتقدمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل ، ورأى

في صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب ويده الصولجان والعصا المعقوفة ، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان . ويلج حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال ، وقال بصوته الرقيق :

— مولاي ، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس .

وانحنى عند ذاك الرسول تحية ، فرد الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسى أمام العرش ، أما حور فقد وقف إلى يمين العرش . وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأوماً بصولجانه إلى الرجل الذي يلي يمينه وقال : « أوسر آمون رئيس الوزراء » ثم أشار إلى الذي يليه وقال : « نوفا آمون الكاهن الأكبر لآمون » ثم تحول إلى شماله وأوماً إلى من يليه قائلاً : « كاف قائد الأسطول » وأشار إلى من يليه قائلاً : « ييسى قائد الجيش » . ولما تم التعارف وجه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبعيتين :

— نزلت منزلاً يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقتي .

فقال الرسول :

— حفظك الرب أيها الحاكم الجليل ، وإني سعيد باختيارى لمهمة السفارة في بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية ..

ولم يغيب عن سمع الملك قوله : « الحاكم الجليل » ولا فاته مغزاها ، ولكن لم يد على وجهه أى أثر لما اضطرب في نفسه ، وكان خيان في تلك اللحظة يلقي عليه نظرة سريعة فاحصة من عينييه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجلاً مهيباً حقاً ، طويل القامة ، مستطيل الوجه جميل ، شديد السمرة ، يميز ملامحه بروز في أسنانه العليا ، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمراً . وكان الملك يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تحجب به بعثات الشمال من أجله ، أى طلب الأحجار والحبوب ، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية ، ورآه ملوك طيبة رشوة

يكفون بها شر الغزاة ، فقال الملك بهدوئه وجلاله :  
— يسرنى أن أستمع إليك يا رسول أبو فيس العظيم .  
فاعتدل الرسول في جلسته كأنما يتوثب للنضال وقال بصوته الغليظ :  
— منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب ، وفي كل مرة  
تعود راضية .

فقال الملك :

— أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة .

فقال خيان :

— أيها الحاكم إني أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية : تتعلق الأولى بشخص  
مولاي فرعون ، والثانية بربه المعبود ست ، والثالثة بروابط المودة بين الشمال  
والجنوب .

فألقى إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام . فاستدرك الرجل قائلا :  
— شكنا مولاي الملك في الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهر أعصابه في الليل ،  
وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكرمتين مما أوقعه فريسة للسهاد والضنى ، وقد دعا إليه  
أطباءه وقص عليهم ما يلقي بلبله فتفحصوه بعناية ، ولكنهم عادوا جميعا من  
فحصه بالحيرة والجهل ، وكان الملك في رأيهم جميعا سليما معافى . ولما يش  
مولاي فرغ إلى نبي معبد ست ، فأدرك الحكيم داءه ، وقال له : إن مبعث آلامه جميعا  
أن خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرب إلى قلبه ، وأكد له ألا شفاء له إلا  
بقتلها .

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة في بركة طيبة مقدسة ، فاختلس نظرة  
إلى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه ، ولكنه وجده جامدا صلبا وإن تضرع  
بالاحمرار ، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه ، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه  
الإصغاء والانتظار ، فقال الرسول :

— وفي أثناء مرض مولاي رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست يزوره بجلاله

ونورانيته ، وعقب عليه قائلا : أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمي ؟ فأقسم مولاى أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد فى طيبة معبدا لست إلى جانب معبد آمون ..

وسكت الرسول ولكن سيكتنزع ثابر على الصمت وبدأ عليه هذه المرة أنه أخذ على غره ، وأنه فوجئ بما لم يدركه فى خلد ، ولم يكن خيانا ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبة فى إثارتة ، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب . فانحنى على أذن مولاة وهمس قائلا : « الأفضل ألا يناقش مولاى الرسول الآن » . فhez الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمى إليه حاجبه ، وظن خيانا أن الحاجب يفضى إلى مولاة بما يقوله فانتظر قليلا ، ولكن الملك قال :

— أعندك بلاغ آخر تفضى به ؟

فقال خيان :

— أيها الحاكم الجليل ، لقد بلغ مولاى أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض ، فراعه ذلك ، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية .

فقال سيكتنزع بدهشة :

— ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب .

فقال الرسول بيقين وإصرار :

— بل كان تاج الملوك منهم ، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه ، لأنه يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج ، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك مل تدل عليه ملاحظة مولاى من رغبة صادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى ومنف وطيبة ...

وسكت خيان ، فساد الصمت مرة أخرى ، وكان سيكتنزع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تتهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزة من نفسه ، وبدلا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته . وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جوابا

وقال بصوت احتفظ بالرغم من كل شيء بهدوئه .  
— أيها الرسول إن رسالتك تنطوي على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا ،  
لذلك أرى أن أكاشفك برأى فيها غدا .  
فقال خيان :

— خير الرأي ما سبقته المشورة .  
فالتفت مكنترع إلى الحاجب حور وقال :  
— تقدم الرسول إلى الجناح المعد له .  
فقام الرسول بجسمه القصير الضخم ، وانحنى تحية ، ثم ذهب يسير في خيلاء  
وعظمة .



وأرسل الملك في طلب ولي عهده الأمير كاموس ، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته في معرفة رسالة حاجب أبو فيس . وحيا الملك في إجلال واتخذ مكانه إلى يمينه ، والتفت إليه الملك وقال :

— لقد أرسلت في طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال ، لترى فيه معنا رأيك ، وإن الأمر لجد خطير فأصغ إلى ...

ثم روى الملك لولي عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين ، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على عياه الحسن الذي يشبه أباه في لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا ، ثم أدار الملك عينيه في الحاضرين ، وقال :

— فيها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكي نرضى أبو فيس ينبغي أن نخلع هذا التاج ، ونذبح أفراس البحر المقدسة ، ونشيد معبدا لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون ، فأشيروا على بما يجب عمله .

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعا يدل على ما يعتلج في صدورهم من الهم ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين ، فقال :

— مولاي ، إن الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى أملاها ، فهو روح سيد يلى على عبده ، وملك يتجنى على شعبه ، وما أراها إلا صورة متجددة لذلك النزاع القديم بين طيبة ومنف ، هذه تسعى لاستعباد تلك ، وتلك تنشئ باستقلالها ما وسعتها الحيلة ، وما من شك فى أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم ، ولعلمهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم ، فأرادوا أن يطلوا مظاهر استقلالها ، ويتحكموا فى عقيدتها ، فيسهل عليهم بعد ذلك

تدميرها .

وكان حور في إلقائه قويا صريحا ، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة ، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكي يحفظوا الجنوب من توغلبهم وشرهم ، وكان لأسرته في هذا السبيل فضل وأى فضل ، حتى استطاع والده سينكنرع أن يدرب قوات عظيمة سرا ليصون بها استقلال مملكته ، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء في صوته ... ثم قال القائد كاف :

— مولاي ... أرى أنه لا يجوز التسليم بأى مطلب من هذه المطالب ... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه ؟ ... كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدو أذل قومنا ! ... وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذى يعبد أولئك الرعاة ؟.

وقال الكاهن الأكبر نوفر آمون :

— مولاي ... إن الرب آمون لا يرضى أن يشيد إلى جانب معبده معبد لإله الشر ست ، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة ، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توج به رأسه بأمره ... كلا يا مولاي إن آمون لا يرضى بذلك أبدا ، وإنه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال ، وتحقيق وحدة الوطن ، فيعود كما كان في عهود الملوك السالفين ..

فجرى الحماس في عروق القائد ييبى مجرى الدماء ، ووقف بقامته الفارعة ومنكبىه العريضين ، ثم قال بصوته الجمهورى :

— مولاي ؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا ، وإنى لعلى يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الممجي الهابط وأدينا من أقاصى الصحارى الماحلة إلى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد رب الشر ويذبح الأفراس المقدسة ؟ ... لقد كان الرعاة فيما

مضى يطلبون أموالا فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فإنهم يطعمون في حررتنا وشرفنا ، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب ، إت قومنا في الشمال عبيد يحرثون الأرض ويخترقون بالأسنة السياط ، ونحن نرجو أن نخلصهم يوما مما يعانون من عذاب لا أن نمضى بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاسع .

لأرم الملك الصمت ، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكن ، وكانت ميوله مع القائد بيبي فقال بعنف :

— مولاي ... إن أبو فيس ينظر بجشع إلى عزتنا القومية ، ويأبى إلا أن يذل الجنوب كما أذل الشمال ، ولكن الجنوب الذى لم يرض المذلة وعدوه في أوج قوته لن يرضاها الآن... فمن يقول إننا نفرط فيما أشد أسلافنا في صوته ورعايته ؟ .. وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال ، وكانت سياسته موجهة دائما إلى تفادى غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهجومية لكى يتفرغ إلى إنماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب ، وقد خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش ، فقال موجهها كلامه إلى رجال المملكة :

— اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب ، ويستذل نفوسهم ويشغل همهم عن شريف المقاصد .

فهر القائد بيبي رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

— يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهدا كافيا لنعرف نفوسهم ، فهم أناس إذا رغبوا فى شئ طلبوه بلسان صريح دون التوسط إليه بالحيلة والمداورة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حررتنا ...

فقال الوزير :

— ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

( كفاح طيبة )

فقال القائد :

— إن جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس :

— ما جدوى الكلام ؟... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات ،

ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيهاها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال ، وليس في الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت ، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوى اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التى لن تظهرها الشمس ..

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز والغضب وكأأنما سمعوا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ، ورفع الملك رأسه ورنأ إلى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجلييلة السامية قائلاً :

— أترى أن نرفض مطالب أبو فيس أيها الأمير ؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

— بكل حزم وإباء يا مولاي .

— وإذا جر الرفض إلى الحرب ؟

فقال كاموس :

— نحارب يا مولاي .. .

وقال القائد ييى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

— نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا ، وإذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر

الشمال ونجلى عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحى الطويلة القدرة .

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

— وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى ؟

فقال الشيخ الوقور :

— أرى يا مولاي أن من يحاول إطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر ..  
فابتسم الملك سيكنترع راضيا وتحول إلى وزيره أوسر آمون قائلا :  
— ولم يبق إلا أنت أيها الوزير .  
فبادر الرجل يقول :

— مولاي ، لم أنصح بالتريث كراهية في الحرب أو خوفا منها ، ولكن  
لنستكمل الجيش الذي أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاي المجيدة ، وهي تحرير  
وادي النيل من قبضة الرعاة الحديدية ، وأما إذا كان أبو فيس يطمع حقا في حريتنا  
فأنا أول من يدعو إلى الحرب .

فنظر سيكنترع في وجوه رجاله ، وقال بصوت دل على العزم والقوة :  
— يا رجال الجنوب إنني أشرككم في عواطفكم ، وأعتقد أن أبو فيس يتحرج  
بنا ويطمع في أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب ، ونحن قوم لا ندعن للخوف  
ونرحب بالحرب . إن الشمال فريسة الرعاة منذ مائتي عام ، امتصوا خير أرضه  
وأذلوا رجاله . أما الجنوب فإنه يكافح منذ مائتي عام غير غافل عن غايته العليا  
وهي تحرير الوادي جميعه ، فهل ينكص على عقبه لأول تهديد ، ويفرط في  
حقه ، ويلقي بحريته وديعة بين يدي الطامع النهم ؟ .. كلا يا رجال الجنوب ،  
سأرفض مطالب أبو فيس المهينة ، وأنتظر ما يرد به علينا إن سلما فسلم وإن حربا  
فحرب ..

وقام الملك واقفا ، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا لإجلاله ، ثم غادر البهو  
على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر ..

وتوجه الملك إلى جناح الملكة أحويتى ، وأدركت المرأة حين رآته يقبل عليها في لباسه الرسمي أن رسول الشمال جاء بأمر جلل ، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة ، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء :

— أحويتى .. يبدو لى أن الحرب تطبق علينا مع الأفق ..  
فقلقت عينها السودان وتمتمت قائلة بدهشة :  
— أتقول الحرب يا مولاي ؟.

فحنى رأسه دلالة الإيجاب ، وقص عليها ما قال الرسول خيان ، ورأى رجاله فيه ، وما استقر عليه عزمه ، وكان يحدثها وعيناه لا تتحولان عن وجهها فقرأ في صفيحتة ما اضطرم في نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام .  
وقالت له :

— لقد اخترت السبيل التى ينبغى لملك أن يختارها .  
فابتسم وربت كتفها ، ثم قال لها :  
— هيا بنا إلى أمنا المقدسة .

ثم سارا معا جنبا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيرى زوج الملك السابق سينكنترع ، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها ..  
كانت الملكة توتيشيرى فى الستين من عمرها تبدو على محياها آى النبل والمجد والمهابة ، وكانت « حيويتها » دفاقة فغلب نشاطها الكبير ، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلل فوديتها ، وذبول خفيف يعلو خديها ، وظلت عينها

على صفائهما وجسمها على فنته ورشاقتها ، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة في بروز أسنانها العليا ، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة ، وقد تخلت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون ، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه ، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع إليه في الملمات ، والقلب الذى يلهم الأمل والكفاح ، وقد أقبلت في فراغها على القراءة ، وكانت تديم المطالعة في كتب خوهر وقاقمنا وكتب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التى خلدها أمثال مينا وخوفر وأمنحيت ، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة في الجنوب جميعه ، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب ، وذلك أنها بشت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكنترع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المختصين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام ، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدلوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين ، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب ، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واستعبدتهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتهم وهبط بهم إلى مستوى البهائم التى تعمل في الحقول ، فإذا كان في الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحبى الآمال فالفضل في إذكائها لوطنيتها وحكمتها ، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتيشيرى ، كما يدعو المؤمنون الربة إيزيس ، وعادوا باسمها من شر اليأس والهزيمة .

هذه هى الأم التى قصدها سيكنترع وأחותي ، وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة ، وذكرت الرسل الذين كان يعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل في طلب الذهب والفلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبع .. وكان زوجها يعث بالسفن محملة ليتقى

قوة القوم الممجية ، وفضاعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش الذى كان أعز ما أورثه سيكتنرع ابنه وخلفه . ذكرت ذلك وهى تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها التحيلتين فقبلا يديها ، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها ، فسألت ابنها وهى تبتسم ابتسامة رقيقة :

— ماذا يريد أبو فيس ؟...

فقال بلهجة تنطوى على الحق :

— يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا . بل ما هو أجل من هذا ؛ إنه يساومنا هذه المرة على شرفنا .

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كل شيء :

— كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب ..

فقال الملكة أحويتى :

— أما هو يا أماه فإنه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق صوتها رقادة ، وأن نشيد معبدا لربه ست إلى جانب معبد آمون ، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض .

ووافق سيكتنرع على قول أحويتى ، وقص على أمه نبأ الرسول ورسالته . فبدأ الإنكار على وجهها الجليل ، ودل التواء شفتيها على الامتعاض والسخط . وسألت الملك قائلة :

— وبماذا أجبته يا بنى ؟..

— لم أبلغه جوابى بعد ..

— وهل انتهيت إلى رأى ؟..

— نعم .. أن أنبذ مطالبه جميعا ..

— إن من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها !



— ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه ..

— فإذا شهر عليك حربا ؟

— شنتت عليه حربا بحرب ..

ورنت الحرب في أذنيها رنيناً عجيباً أيقظ بقلها ذكريات قديمة ، وذكرت أياماً مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشاً قوياً يدفع به طمع عدوه ، أما ابنها فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة ، فقد تغير الزمن وتجدد الأمل ، واختلست من وجه الملكة نظرة فوجدته شاحباً ، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة .. وهى نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغى للمعلمة القوم وأمهم المقدسة أن تقوله . وقد سألته :

— وهل تقدر على الحرب يا مولاي ؟

فقالت بنبات :

— نعم يا أماه .. لدى جيش باسل .

— هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال ؟

— يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة ..

ثم هز منكبيه استهانة وقال بحق وغيظ :

— أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاماً بعد عام فلم تغلح المداراة في إسكات

جشعهم ، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع ، وقد حم القضاء

وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمداراة . سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما

بعدها .

فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار :

— فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية .

— فماذا تقولين يا أماه ؟

— أقول يا بنى : سر فى طريقك يرباك الرب وتباركك دعواتى ، هذه غايتنا  
وهذا ما ينبغى للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال طيبة الخالدة .  
وابتهج سيكتزع وتألق بالنور وجهه ، وهوى على رأس توتيشيرى يقبل  
جبينها ، وقبلت خده الأيسر ، وقبلت خد أحويتى الأيمن وباركتها معا ، فعادا  
من لدها سعيدين مغتبطين ..

وأعلن الرسول خيان أن سيكتنزع سيستقبله غداً غد ، وفي الموعد المحدد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابيه ، وهناك وجد في انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائد الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه ، وجلس على العرش وأذن لهم في الجلوس ، ثم صاح حاجب الباب معلناً وصول الرسول خيان ، ودخل الرجل بحمسه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء ، وكان يسائل نفسه : ترى ماذا وراء الشورى ؟. أسلام أم حرب ؟. ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه ، ورد عليه الملك التحية وأذن له في الجلوس وهو يقول :

— عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة .

— كانت ليلة سعيدة ، شكراً لضيافتك الكريمة .

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه ، فانقبض صدره واحتدم الغيظ في قلبه ، وكبر عليه أن يتحدثاه كذلك حاكم الجنوب ، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب ، فأراد أن يقول رأيه صريحاً حازماً قاسياً فقال :

— أيها الرسول خيان : لقد درست المطالب التي تحملها إلينا بعناية ، وشاورت فيها رجال مملكتي ، فاتفق رأينا جميعاً على رفضها .

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم ، فأخذ واستولى عليه الدهول ، ونظر إلى سيكتنزع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجمان ، واستدرك الملك قائلاً :

— لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا ، ونحن لا نسمح لأي

إنسان أن يمس العقيدة والشرف منا .  
وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال  
الملك :  
— إذا سألتني مولاي : لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا لست ، فماذا  
أقول له ؟

— قل له إن أهل الجنوب يعبدون آمون وحده ..  
— وإذا سألتني ، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التي تقض مضجعي ؟..  
— قل له إن أهل الجنوب يقدسونها .  
— يا عجبا .. أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر ؟..  
فأطرق سيكنرع مليا كأنه يفكر في الجواب ، ثم قال بلهجة حازمة :  
— إن أبو فيس مقدس لديكم ، وهذه الأفراس مقدسة لدينا .  
وسرت موجة ارتياح في نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف ، أما خيان  
فقد اشتد به الغضب ولكنه لم يستسلم لسلطانة ، وكبح جماح نفسه وقال  
بهدوء :

— أيها الحاكم الجليل ، كان أبوك حاكما على الجنوب ولم يكن يلبس هذا التاج ،  
فهل ترى لنفسك حقا غير ما كان يرى أبوك لنفسه ؟  
— لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم ، ومن حتى أن أتوج به  
رأسي .

— ولكن في منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج ، ويسمى نفسه  
فرعون مصر ، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه ؟..  
— أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة ...  
ونقد صبر خيان فقال بحق واحتقار :

— أيها الحاكم ، لا تظن أن لبسك التاج يرفعك إلى مصاف الملوك ، فالملك من  
بعد ومن قبل قوة وسلطان ، ولست أرى في أقوالك إلا استهانة بالوشائج الطيبة

التي ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا ، ونزوعا إلى التحدى لا تؤمن عواقبه .  
فتبدى الغضب على وجوه الحاشية ، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال  
مسترسلا :

— أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر ، ولكن إذا تحرش بشرفنا متحرش ؛ لا  
نتكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة ، ومن فضائلنا ألا نغالى فى تقدير قوتنا فلا  
تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخرا . ولكن اعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ما  
وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب  
والناس على المحافظة عليه ...

فعلت شفتى خيان الحادثين ابتسامة ساخرة تخفى حقدا مرا . وقال بلهجة  
ذات مغزى :

— كما تشاء أيها الحاكم وما على إلا البلاغ ، وستحمل تبعه أقوالك .  
فحنى الملك رأسه ولم يتكلم . ثم قام واقفا مؤذنا بانتهاء المجلس ، فوقف  
الجميع إجلالا حتى غيبه الباب عن أنظارهم ..

وكان الملك يقدر خطر الحال ، فأراد أن يزور معبد آمون ، ليدعو الرب  
المعبود ويعلن الكفاح في الفناء المقدس ، وأعلن إرادته لوزيره ورجاله ، فقصدت  
جموعهم من وزراء وقواد وحجاب وكبار موظفين إلى معبد آمون لتكون في  
استقبال الملك . وتنبهت طيبة الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشم ،  
وتهاشم كثيرون بأن رسول الشمال جاء متعاليا وآب غاضبا . وذاع بين الطيبين  
أن سيكنترع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأي ويسأله المعونة ، فذهبت جموع  
غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد ، وانضم إليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد ،  
وتدافعوا إلى السبل المؤدية إليه ، وكان يبدو على وجوههم الجد والاهتمام  
والتطلع ، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث كل يفسر الأمر على  
ما يرى ، وجاء الركب الفرعوني تتقدمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك  
وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكي ، فسرت في  
نفوس القوم موجة من الحماس والفرح ، ولوحوا المليكهم بأيديهم وهللوا له  
وكبروا ، فابتسم سيكنترع إليهم ولوح لهم بصولجانه ، ولم يغب عن أحد أن  
الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة ، فاشتد تشوف الناس إلى سماع  
الأخبار ، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراء آله نساء ورجالا ، فاستقبلهم كهنة  
المعبد والوزراء والقواد بالسجود ، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلا : أدام  
الرب حياة الملك وحفظ مملكة طيبة ، وردد القوم هتافه بحماس وأعادوا  
ترديده ، فحياه الملك برفع يده إلى رأسه وابتسامه من فمه العريض ، ثم تقدم  
الجمع بأسره إلى بهو المذبح ، وقدم الجنود ثورا ذبيحا للرب ، ثم طافوا جميعا  
بالمذبح وبهو الأعمدة ، وهناك وقفوا صفين ، وأعطى الملك صولجانه لولى عهده

الأمير كاموس وسار إلى السلم المقدس فارتقاه إلى قدس الأقداس ، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة ، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق ، وحنى رأسه وخلع تاجه إجلالا للمكان المطهر ، وتقدم نحو المحراب الثاوى فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة ، ثم سجد عند قدميه ولشمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى :

— أيها الرب المعبود ، رب طيبة المجيدة ، ورب أرباب النيل ، هبنى من لدنك رحمة وقوة ، فإنى اليوم أعرض لتبعة خطيرة إن لم تشدد فيها أزرى عييت دونها .  
هى الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذى سقط علينا من صحراء الشمال فى جموع همجية خربت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا ، هبنى معونتك أصد جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادى من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه إلا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه إلا اسمك .

وسكت الملك ، وانتظر برهة ، ثم استغرق مرة أخرى فى صلاة طويلة حارة مسندا جبينه إلى قدمى التمثال ، ثم رفع رأسه فى وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخفى وراءه أحداث القضاء .

\* \* \*

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصد بالعرق فسجدوا له جميعا ، وتقدم منه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه يميناه وقال بصوت جهورى :

— يا رجال طيبة المجيدة ، لعل عدونا فى هذه الساعة التى أحدثكم فيها بمحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا ، فهلموا جميعا إلى الكفاح ، وليكن شعار كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده فى عمله ، كى يقوى جيشنا على الثبات والقتال ، ولقد صليت للرب وسألته العون ، وليس الرب بناس وطنه وأبناءه ..

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد : « أيد الرب ملكنا

سيكننرع .. « وهم الملك بالمسير فدننا منه كاهن آمون وقال :

— هل لمولاي أن ينتظر قليلا لأقدم إليه هدية مقدسة ..؟

فقال الملك مبتسما :

— كما تشاء يا صاحب القداسة ..

وأشار الكاهن إلى كاهنين إشارة خاصة ؛ فمضيا إلى حجرة المخلفات ، وعادا يحملان صندوقا صغيرا من الذهب تطلعت إليه الأبصار جميعا ، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق في أنأة ورفق ، فرأت الأعين بداخله تاجا فرعونيا ، تاج مصر المزدوج ، فاتسعت الأعين دهشة وتبدلت النظرات ، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدج :

— مولاي هذا تاج الملك تيمايوس ...

فتصايح قوم قائلين : « تاج الملك تيمايوس ... » فقال نوفر آمون بحماس

وقوة :

— نعم يا مولاي ، هذا تاج تيمايوس آخر فرعون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا . وقد شاعت حكمة الرب أن تحمل نغمته ببلادنا في عهده ، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى في الدفاع أشد البلاء ، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه ، لذلك رفعه أسلافنا إلى هذا المعبد ليأخذ مكانه بين المخلفات المقدسة ، ولقد مات صاحبه بطلا شهيدا فهو جدير برأسك الكبير : وإني أتوجك به أيها الملك سيكننرع ، يا ابن توتيشيرى الأم المقدسة ، وأنادي بك ملكا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة . وأدعوك باسم الرب آمون وذكري تيمايوس وأهل الجنوب أن تنفر إلى قتال عدوك وتحرير وادي النيل الطاهر المحبوب ..

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلمه إلى أحد رجال الكهنوت ، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعاه على رأسه المجعد ، ثم صاح هاتفا : « ليحيى سيكننرع فرعون مصر » . فردد



القوم هتافه ، وهرع كاهن إلى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكنترع ،  
فردد الطيبون الهتاف في حماسة مستعرة . ثم هتف بقتال الرعاة وأجابه القوم  
بأصوات كالرعد ، وقد أيقنوا بما كانوا منه في شك ...  
وحيا فرعون الكهنة ، ثم اتجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره  
ووجوه المملكة الجنوبية ...

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدى الجيش والأسطول وقال لهم :

— إن سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعا ، وستعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب ، فينبغى ألا نضيع ساعة من وقتنا .

والتفت إلى قائد الأسطول كاف وقال :

— أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء ، فالرعاة تلاميذنا فى القتال فى السفن ، هيمى سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال ...

فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على عجل . ونحول الملك إلى القائد ييسى ، وقال :

— أيها القائد ييسى ، إن قوة جيشنا الأساسية معسكرة فى طيبة ، فسر بها إلى الشمال ، وسألحق بك على رأس قوة من حرسى الأشداء ، وإنى أدعو الرب أن يثبت جنودى أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول إلى بنوبولس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة .

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى ، وجعل الملك يقلب وجهه فى وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم :

— سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا ، فليقم كل منكم بواجبه بما أعده فىكم من الكفاية والإخلاص .

فقالوا فى صوت واحد :

— كلنا فداء للملك ولطية .

فقال سيكتنرع :

— يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان يحثون قومي على الجهاد .  
وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشداء والقادرين من  
شعبي ، أما أنت يا حور فإني أعهد إليك بآل بيتي ولتكن لابني كاموس كما كنت لى .  
وحيا الملك رجاله وغادر المكان قاصدا إلى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل  
الرحيل ، وأرسل فى طلبهم جميعا فجاءت الملكة أحويتى والملكة توتيشيرى  
والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحمس وابنتهما الصغيرة  
الأميرة نفرتارى ، فاستقبلهم استقبالا وديا وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان  
يتدفق من بين أضلعه ، ومضى يقلب عينيه فى أحب الوجوه إلى قلبه وكأنه يرى  
وجها واحدا يتكرر لا يفرق بينها سوى العمر ، فتوتيشيرى فى الستين ، وأحويتى  
مثل زوجها فى الأربعين ، أما كاموس وستكيموس فى الخامسة والعشرين ،  
وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة ، وأخته نيفرتارى دون ذلك بعامين ، ولكن ما من  
وجه فيهم إلا وتنالق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذى يميل إلى البروز  
أعلاه ، وتلك السمرة الخمرية التى تضى عليه صحة وحسنا ، وارتسمت على  
فم الملك العريض ابتسامة وقال :

— تعالوا نجلس معا ساعة قبيل الرحيل ...

فقال توتيشيرى :

— إنى أدعو الرب يا بنى أن يكون ذهابا إلى النصر المين .

فقال سيكتنرع :

— إنى كبير الأمل فى النصر يا أماه ...

ورأى الملك ولى العهد فى لباس الحرب فأدرك أنه يظن نفسه خارجا معه  
فسأله متجاهلا :

— لماذا ترتدى هذا اللباس ؟..

( كفاح طية )

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال ، وقال باستغراب :

— للسبب الذى من أجله ترتديه أنت يا مولاي .

— هل جاءك أمرى بذلك ؟

— ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاي .

— أخطأت يا كاموس .

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال :

— هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاي ؟

— إن ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى ، وستبقى على

عرشى يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمد جيشنا بالرجال والقوة .

فامتقع وجه الشاب ، وحنى رأسه كأنما أثقله أمر الملك ، وأرادت توتيشيرى أن تخفف عنه فقالت بركة :

— كاموس ... إن القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهين الذى يخزى إنسانا وهو عمل جدير بمثلك .

وهنا وضع الملك يده على منكب ولى عهده وقال :

— أصغ إلى يا كاموس إننا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون

الرب ، ونحرر بلادنا المحبوبة مما تقيد به من الأغلال ، على أنه من الحكمة أن نقدر

جميع العواقب ، وقد قال حكيمننا قاقمنا : « لا تضع كل أسهمك فى جعبة واحدة » .

وسكت الملك عن الكلام ، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتى

استأنف الملك قائلا :

— فإذا شأنت حكمة الرب أن ييؤ جهادنا بخذلان فما ينبغى أن ينقطع

جهادنا قط ... أصغوا إلى جميعا ، إذا سقط سيكنترع فلا تيسوا فسيخلف

كاموس أباه ، وإذا سقط كاموس خلفه أحسن الصغير ، وإذا فنى جيشنا هذا

فمصر ملأى بالرجال ، وإن تسقط بطلميائس فلتحارب كيتوس ، وإن تقتحم طيبة فلتشب أمبوس وسين وييجة ، أو يقع الجنوب في أيدي الرعاة فهناك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون ، وستولى توتيشيرى الأبناء بما تولت به الآباء والأجداد ، فلا أحذركم إلا من عدو واحد هو اليأس ..

وكان لكلام الملك وقع شديد في نفوس الجميع حتى أحس الصغير ونيفرتارى وجما وعلاهما الارتباك ، وعجبا كيف يحدثهما جدما بهذه اللهجة الجدية أول مرة ، واغرورقت عينا الملكة أحويتى بالدموع ، فتكدر سيكتنرع وقال بلهجة لم تخل من عتاب :

— أتبيكين يا أحويتى .. انظري إلى شجاعة أمنا توتيشيرى .

ثم نظر إلى أحس وكان يكلف به كلفا عظيما ، وكان الغلام صورة صادقة من جده ، فجذبه إليه وسأله مبتسما .

— من العدو الذى يجب أن نحذره يا أحس ؟.

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول :

— اليأس ...

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى : ثم قام واقفا وقال برقة :

— هلموا نتعانق ..

ثم عانقهم جميعا مبتدئا بتوتيشيرى وزوجه أحويتى وستكيوموس زوج ابنه ثم أحس ونيفرتارى : ثم انعطف نحو كاموس ، وكان واقفا في جمود واستسلام ، فمد له يده فشد عليها بقوة ، ثم اغنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت :

— فلتصحبك السلامة يا أبتاه ..

ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتين وقد تجلى على وجهه العزم والبأس ...

\* \* \*

وخرج الملك في رأس قوة من حرسه والتقى في ميدان القصر بمجموع شعب

طيبة جميعا رجالا ونساء وأطفالا قد انتقلوا إلى ميدان القصر يحيون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيا تحرير الوادى ، وشق سيكتنرع طريقه بين موجههم المتلاطم قاصدا باب طيبة الشمالى ، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين فى توديعه ، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلا ، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له :

— سأستقبلك يا مولاي بعد حين ورأسك مكمل بالغار .. اللهم استجب .  
واجتاز الملك باب طيبة العظيم فى طريقه إلى الشمال تاركا وراءه أسوار المدينة العظيمة ، وكان عظيم التأثير لما رأى ولما سمع ، وقد شعر بخطور العمل الكبير المقبل عليه ، وكيف أنه ينطوى على إسعاد شعبه أو إشقائه إلى أمد طويل ، لقد وضع مصير القوم فى قبضة يده وواجه المخاطر المروعة التى وقف منها أبوه موقف المتمهل المترث ، ولم يكن سيكتنرع من الحكام المترفين ولكن كان خلقه ينطوى على الصلابة والبسالة والتعشف والتدين ، وكان عظيم الأمل قوى الثقة بقومه . وقد لحق جيشه بالمعسكر فى بلدة شهور شمال طيبة قبل المساء واستقبله القائد يبيى على رأس قواد الفرق ، وكان مضعضع الخواس لما أصابه من إرهاب ووصب ، ولم تغب حالته عن عيني الملك فقال له :

— أراك متعبا أيها القائد .

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال :

— استطعنا يا مولاي أن نجتمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة ، فكونت جيشا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل .

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسمرت فى نفوسهم موجة فرح وحماس ، وتردد الافتاف له فى المعسكر شمال بلدة شهور ، ثم كر راجعا إلى الخيمة الملكية وفى صحبته القائد يبيى ، وكان الملك مطمئنا إلى جيشه الذى بذل أجمل عهود شبابه فى تدريبه فقال :

— جيشنا باسل .. فكيف ترى شعور القواد ؟

— كلهم متفائلون يا مولاي ومتحمسون للحرب ، وما من واحد منهم إلا  
يبدى عظيم إعجابه بفرقة القسي ذات الشهرة التاريخية .  
فقال الملك :

— إني أشارككم هذا الإعجاب ، والآن أصغ إلى ، لا يجوز أن نضيع من  
الوقت إلا ما تستلزمه ضرورة إراحة هذا العدد من الجنود ، فإنه ينبغي أن نلقى  
عدونا — إذا هاجمنا حقاً — في الوادي المنحدر ما بين بانوبوليس وبطلوس ، فهو  
واد شديد الوعورة ضيق المسالك ، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه ،  
ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن تساعد أسطولنا في أثناء اشتباكه مع العدو ..  
— سنشرع في المسير يا مولاي قبيل الفجر .

فأوما برأسه دلالة على الموافقة وقال :

— ينبغي أن نبليغ بانوبوليس ونعسكر في واديه قبل أن يعود خييان إلى  
منف ...  
ثم دعا الملك قواده إلى الاجتماع به .

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوة الكشافة ، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتي عجلة على رأسها فرعون ، وتتبعها فرقة الرماح ، ثم فرقة القسي والنبال ، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة ، وعربات المژن والسلاح والحيايم . وأبحر الأسطول في الوقت نفسه إلى الشمال ، وكان الظلام شديدا لا يخفف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء المشاعل ، فبلغوا مدينة قسى فهبت جميعا لاستقبال فرعون وجيشه ، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة ، وساروا مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهية ، ولم يتركوه حتى أوغل في المسير ، وبهتت ظلمة الليل وانسكب في الأفق الشرقي نور الفجر الأزرق الهادي . يتقدم بشارت النور ، ثم أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد في السير حتى بلغ كتوت قبيل العصر ، فاستراح فيها وقتا بين المستقبلين من أهلها المتحمسين . ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش في تنثرا فأصدر أمره باستئناف المسير ، وجد الجيش حتى بلغ تنثرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق ..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب في الأرض حتى حلول الظلام يوما بعد يوم حتى عسكر في أيديوس ، وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقواما تضرب في الأرض ، فعدا على رأس ثلة من رجاله نحو القادمين ، وكان كلما هبط الوادي تبين له الأمر فرأى خطوطا متعرجة من الفلاحين يسرون جماعات يحملون ما خف من متاعهم ، ومنهم من يسوق غنا أو ثيرانا يدل منظرهم على البؤس والتشرد ، فعجب الرجل واعترض سبيل



المتقدين منهم وهم بسؤالهم ، ولكن رجلا منهم صاح به :

— الغوث أيها الجندى ... أدر كونا فقد هلكنا ..

فصاح الضابط مترعجا :

— تطلبون الغوث ؟.. ماذا يفزعكم ؟

فأجاب كثيرون منهم في نفس واحد :

— الرعاة ... الرعاة ...

وقال الرجل الأول :

— نحن أهالى باتوبوليس وبطلمايس ، جاءنا جندى من جنود الحدود وقال لنا : إن جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوات عظيمة لن تلبث أن تندفع إلى بلدتنا ونصحبنا بالهجرة إلى الشمال ، فساد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعا إلى ديارنا ننادى النساء والأطفال ونحمل ما يخف حمله ، ثم تركنا البلاد وراءنا فارين ، فمما ذقنا الراحة منذ صباح أمس ..

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم الضابط :

— استريحوا قليلا ثم جدوا في السير ، فمما قليل ينقلب هذا الوادى الساكن

ميدانا للقتال .

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد في أيديوس ، وأبلغه

الخبر ، وقام ييبى من فوره إلى الملك وقص عليه الخبر ، فتلغاه بدهمة وانزعاج

وصاح :

— كيف وقع هذا .. هل بلغ خيان منف في هذا الزمن اليسير ؟...

فقال ييبى بحنق :

— لا شك يا مولاي في أن عدونا حشد جيشه على حدودنا قبل أن يبعث إلينا

برسوله ، فهو كان يترى بنا ، وما عرض علينا مطالبه إلا وهو يرجو أن

ترفضها ، فلما اجتاز خيان حدودنا عائدا أصدر أمره للجيش المحتشدة

بالمجوم ، هذا هو التفسير المعقول لذلك الهجوم السريع العنيف ..

فاصفر وجه الملك سيكنترع غضبا وحنقا وقال :  
— إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس .  
— نعم وأسفاه يا مولاي ، ولا يجدى في الدفاع عنهما بسالة حاميتنا قليلة  
العدد .

فهز الملك رأسه أسفا وقال :  
— خسرنا أوفى ميدان قتال لنا .  
— لن يؤثر هذا في شجاعة جنودنا الفائقة ..  
وفكر الملك مليا ثم قال لقائد جيوشه :  
— ينبغي أن نخلى أيديوس ونشيرا إخلاء تاما .  
فبدا التساؤل على وجه بيبي فقال الملك :  
— لن ندافع عن هذه المدن .  
فأدرك بيبي ما يعنيه مولاه .  
— أريد مولاي أن يلقي العدو في وادي كبتوس ؟

— هذا ما أريده ، فهناك تمكن مهاجمة العدو من عدة جهات . وتوجد في  
أنحاء الوادي حصون طبيعية ، وسأترك له في المدن التي نخليها عصابات تكرر عليه  
دون أن تشتبك معه في قتال فتعطل تقدمه حتى نقوى مراكزنا ، هيا يا بيبي ابعث  
برسلك إلى المدن ليخلوها ، ومر القواد بالتقهقر في الحال .. ولا تضع وقتا فإن  
جبل الأرجوحة التي يترجح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه في يد أبو فيس .

وصاح المنادى فى أهالى أيلدوس وبرفا وتثيرا أن احمّلوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب ، فقد أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة ، وكان القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم ، فتولاهم الخوف وبادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكسدون بها العربات تجرها الثيران ، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجل ، ولموا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنما تقطع أوصالهم من الحزن والأسف ، وكان كلما تقدم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة إلى الورا تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم ، ثم تغزّهم المخاوف فيجدون سراحا إلى الجاهل التى تنتظرهم ، ومروا فى طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم فى صدورهم وداعب أحلامهم الأثيمة أمل ، واخترت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمتعت فى جو أحزانهم كما تضىء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقضت عنها لحظة فى يوم أدكن السماء ، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون :

« أراضينا وديعة مسلوقة ... ردوها إلينا أيها البواسل .... » .

كان فرعون فى تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته فى وادى كبتوس ويرمق بعينين أسيفيتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيارهم المتدفق ، وكان يشاركهم آلامهم كأنه واحد منهم ، ويضاعف فى ألمه ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له .

وكان القائد ييسى على اتصال دائم برجال الكشافه فيتلقي الأخبار منهم ثم يرفعها إلى مولاه ، فبلغه هجوم العدم على أيلدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أئت على آخر رجل منهم . وغداه اليوم التالى حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال بها الرجال المدافعون عنها من فنون

الدفاع والمشاكسة لكي يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة ، أما تنثرا فقد ثبتت حاميتها للعدو الزاحف ساعات طوالا حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشا كامل العدد والعدة ، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفا وسبعين ، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة ، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع ؛ لأنه لم يكن هو — ولا أحد من جيشه — يتوقع أن يملك جيش أبو فيس هذا العدد الضخم من العجلات ، وقال لقائده :

— كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات ؟ ..

وكان يبيى في حيرة من أمره ، وكان يلقي على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه :

— ستهض فرقة القسى بواجبها يا مولاي .

فهز الملك رأسه دهشة وقال :

— لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة ، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها ؟ ..

— والمؤلم يا مولاي أن تكون الأيدي التي صنعتها مصرية ..

— حقا إنه لمؤلم .. ولكن هل تنفع القسى في مقاومة سيل من العجلات ؟

— إن جنودنا يا مولاي لا يخططون أهدافهم ، وسيرى أبو فيس غدا أن الغلبة

لسواعدهم على كثرة عجلاته ..

وفي ذلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض . وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعا إليه أن يشرح صدره ، ويثبت قلبه ، ويكتب له ولجيشه النصر .

وأحس الجميع دنو العدو ؛ فضاعفوا من يقظتهم ، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم في معركة الموت .

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر يزمن غير يسير ، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسي أماكنهم الحصينة في الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات ، ووقف سيكتنرع أمام خيمته مع قائده يبيى وسط هالة من رجال حرسه الأشداء ، وكان يقول لهم : « ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها . ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رماننا المحصنين على إصابة فرسان العدو وجياده ، وليس من شك في أن أبو فيس سيدأ هجومه بالعجلات ، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقى حتى يفصل في معركة العجلات ، فليكن هننا موجهنا إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز ، حتى نمكن لفرق جيشنا التي لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا » .

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذى يهيم به ، وكان يدعو ربه آمون في صدق ورجاء قائلا : أيها الرب المعبود ، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة .. وانصر أبناءك المؤمنين ، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك في مثواك المكرم ، وتغلق أبواب معبدك المطهر .. » .

وركب الملك عجلته ، وفعل القائد يبيى مثله ، وأحاط بهما الحرس الفرعوى ، ووقف خلفهما مائة عجلة حربية ، ثم تقدمت فرقة الرماح ورصت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله ، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التي تؤيدها بواجبها الأول .

وحين أخذت تبدو بشائر النور ، جاء رجل من الكشافاة وأبلغ الملك أن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول الرعاة في معركة حامية شمال كبتوس ، فقال الملك لقائد جيشه :

— إن أبو فيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة ، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من إززال جنود وراء مواقعنا .  
فقال القائد يبيى :

— إن الرعاة يا مولاي لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن ، وسيبتلع النيل المقدس جثث جنودهم ، ويبتلع أمل أبو فيس في حصارنا .  
كانت ثقة سيكننرع في رجال أسطول طيبة عظيمة ، ولكنه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحرية ، وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر ، والميدان يتجلى للأعين الفاحصة ؛ فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسي في أيديهم ، والعجلات المعدودة تتحفز إلى جانبهم للقتال ، ورأى في الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار النائر . وكان العدو ينتظر سفور الصبح ، فما عتمت أن تحركت قوات العجلات استعدادا للمعركة ، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأمامية فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون ، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض العجلات المصرية في قتال عنيف ، فصاح سيكننرع :

— الآن تبدأ معركة طيبة .

فقال يبيى بصوت قوى النبرات :

— نعم يا مولاي ، وقد بدأ جنودنا بدءا حسنا .  
وصوبت الأبصار جميعا إلى الميدان تشاهد سير المعركة ، فرأوا عجالات الرعاة تهاجم صفائهم تتفرق جماعات شتى ، وتهاجم على الرماة بعنف وسرعة ، وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية ، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعا في استبسال وشجاعة ، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم ، فكانوا يشبون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، حتى صاح يبيى قائلا :

— لو دام القتال على هذا النحو ، فستفوق على فرقة العجلات في أيام قلائل .

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل ، ثم تترد إلى معسكرها وتنقض غيرها كى لا تنهك قواها ، على حين كان المصريون يدافعون دون سكوت أو راحة وهم ثابتون في مراكزهم ، وكان سيكنترع كلما رأى فارساً من فرسانه أو عجلة من عجلاته تتعطل ، يصيح غاضباً : وأسفاه ، ويدرك أتم إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة ، وأخذ عدد الوحدات التي يهجم بها الرعاة يتضاعف ، كانوا يهجمون ثلاثاً ثلاثاً ، ثم هجموا ستاً ستاً ، ثم عشرة عشرة . واشتد القتال وحى وطيسه ، واطرد عدد عجلات الهكسوس في الزيادة ، حتى ساور سيكنترع القلق ، وقال لبيى :

— لا بد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد إلى الميدان اتزانه .  
— ولكن يا مولاي ينبغى الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة .  
— ألا ترى أن العدو يكر علينا كل فترة يسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال ؟ ..

— إنى أدرك الحطة يا مولاي ، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا ..  
فصر الملك بأسنانه وقال :

— لم نكن نتوقع قط أن تكون له هذه الغلبة في العجلات ، ومهما يكن فلا يمكننى أن أترك الرماة بلا نجدة ، فليس في جيشي رماة سواهم ..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة في خمس وحدات ، فانقضت كالنسور الكواسر ، وبعثت في الميدان حياة جديدة ، ولكن أبو فيس أراد أن يرد على حملة سيكنترع الجديدة رداً قاسياً ، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كل وحدة خمس عجلات ، فزلزلت الأرض بصلصلتها ، وملأت الفراغ بجبال من غبار نائر ، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر .. وتقدم الوقت وهي لا تهدأ أو تخف وطأتها حتى توسطت الشمس كبد السماء . وجاء بعد ذاك رجال الكشفة وأذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد في الأسر سفيتين ، وغرقت له

سفينة أخرى ، فجاء نأ النصر في وقته ليشد من عزيمة المصريين ويثبت قلوبهم ، وأذاع الضباط في الفرق المقاتلة والتي تنتظر أن يجيء دورها في الكفاح ، فكان له صدى فرح في الصدور ، وفورة حماس في القلوب ، ولكن صك ذلك الخبر آذان أبو فيس كذلك فاستولى عليه الغضب ، وغير خطته البطيئة في الحال ، وأصدر أمره إلى قوة العجلات بالهجوم والانتقام .. ورأى سيكننر ع سيلاً عرمرما من العجلات ينقض على رماته البواسل من كل مكان ، وينشب فيهم أظافره الحادة . وارتاع الملك أيما ارتياح ، وصاح قائلاً بغضب شديد :

— إن قواتنا التي نهكها النضال الدائم ، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات ..

ثم التفت إلى قائد جيشه ، وقال بعزم وإصرار :

— سنخوض معركة فاصلة بالقوات التي بين أيدينا ، فمر ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم ، وبلغهم رجائي أن يقوم كل بواجبه جندياً من جنود طيبة الخالدة .

وكان سيكننر يدرك الهول الذي ينتظره وجيشه ، ولكنه كان رجلاً بأسلاً عظيم الإيمان ، فلم يتردد لحظة ونظر إلى السماء وقال بصوت صافي النبرات : « أيها الرب آمون لا تنس أبناءك المخلصين » . ثم أصدر أمره إلى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم ، واندفع أمامها ليلقى عدوه ..

وبدأت معركة من أشد المعارك هولا ، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ ، وتساقطت الرعوس . وجرت الدماء ولكن لم تجد بسالة المصريين شيئاً في مقاومة العجلات السريعة المدرعة ، ففتكت بهم فتكا ذريعاً ، وحصدتهم حصداً كالحشيم ، وقاتل سيكننر قتالاً مجيداً غير يائس ولا متخاذل ، وبدأ ساعة كأنه رب الموت يختار له من يشاء من عدوه . واستمرت المعركة حتى الأصيل وهناك بدت الغلبة في صف الرعاة ، فتحفزوا ليضربوا الضربة القاضية ، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل



الliche ناصع البياض ، على عجلة سيكتنرع ، وشقت إليه الصفوف ببسالة  
خارقة . وأدرك الملك غرض الفارس الجسور ، فهرع نحوه حتى تواجهها ، ثم  
تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما ، فتلقى كل منهما الضربة الموجهة إليه بترسه  
وتحفز للقتال . ورأى سيكتنرع غريمه يسيل سيفه ، فعلم أنه لم يقنع بتجربة  
حظه ، فسل سيفه واندفع نحوه ، وفي تلك اللحظة الرهيبة استقر سهم في  
ساعده ، فارتعشت يده وسقط منها السيف .. وصاح كثير من حرس الملك :  
« حذار يا مولاى .. حذار » ولكن الغريم كان أسرع إليه من الحذر ، فوجه إلى  
عنقه ضربة هائلة بأقصى قوته ، فأصابته هدفها ، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ  
الألم ، وتوقف مقهورا عن المقاومة . فقبض عدوه يمينه على رمح ورشقه بقوة ،  
فاستقر في جانب الملك الأيسر ، وترنخ على أثره ذاهلا وسقط على الأرض ..  
وتعالى الصياح من كل جانب ، فقال المصريون : « ربه .. لقد سقط الملك ..  
دافعوا عن مليككم .. » وصاح قائد العدو وهو يتسم ابتسامة الظافر : « أجهزوا  
على التمرد العاصى ، ولا تبقوا على أحد من رجاله » . فاشتد القتال حول جسد  
الملك الملقى ، وانقض عليه فارس حقود . ورفع بلطة حادة ، وهوى بها على  
رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج ، وتفجر منه الدم كالينبوع ، وثنى بضربة  
أخرى فوق العين اليمنى ، فحطمت العظام وتناثر المخ في حالة بشعة ، وأراد  
كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم ، فشكلوا على الجنة  
ووجهوا إليها طعنات مجنونة قاسية ، أصابت العينين والفم والأنف والخصدين  
والصدر ، فمزقت الجنة وأغرقتها في بحر من الدماء ..  
وكان يبنى يقاتل على رأس من بقى من جنوده ، مدافعا قوات العدو المتدفقة  
على البقعة التى سقط فيها مولاة . واستيأس القوم في القتال ، وهانت عليهم  
الحياة ، وعزموا جميعا على الاستشهاد في المكان الذى ارتوى بدماء مليكهم  
الباسل ، فما زالوا يسقطون رجلا إثر رجل حتى أدركهم المساء ، وليس الكون  
الحداد ، فكف الفريقان عن القتال ، وقد نهكهم التعب وأثخنهم الجراح .

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم ، وكان القائد يبىي واقفا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كل منال ، يتجه قلبه إلى الجنة التى خضبت دماؤها الزكية الميدان ، فسمع صوت قائد يقول :

— يا للعجب .. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة .. من يصدق أننا فقدنا جل قواتنا فى نهار واحد .. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء... ١٩

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالحشرة :

— إنها العجلات التى لا تقاوم .. لقد حطمت آمال طيبة جميعا ..  
فناداهم القائد ببىي قائلا :

— أيها الجنود .. هل أديتم ما عليكم نحو جثة سيكنترع ؟... هلموا نبحث عنها بين الجثث ..

فسرت قشعريرة فى نفوسهم المتهاكلة ، وأخذ كل منهم مشعلا وتبعوا ببىي صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق ، وتفرقوا فى البقعة التى سقط فيها الملك ، تصك أذانهم أنات الجرحى وهذيان المحمومين ، وكان ببىي لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم ، ولا يكاد يصدق أنه يبحث حقا عن جثة سيكنترع ، ويكره عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة ، وكان يقول والدموع تطفرف من عينيه : « اشهدى يا أرض كبتوس واعجبى .. إننا نبحث عن جثة سيكنترع بين كتبائك .. ألا رفقا بها ، ولتكونى فراشا وثيرا لأضلعها المصابة ، ألم تسقط فداء لك ولأرض طيبة !.. واهيا سيدى .. من لطيبة بعدك ؟.. من لنا غيرك ؟.. » وظل فى حيرته قليلا ثم سمع صوتا يصيح قائلا :

« أيها الرفاق تعالوا .. هاكم جثة مولانا ». فجرى صوبه والمشعل في يده . فرزة عيناه من الهول الذى ستره ، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية ، امتزج فيها الألم بالغضب . رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من اللحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه ، فصاح غاضبا : « يا للغربان الدنية .. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد المحصور ، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر ، فقد حيت كما ينبغي للملك من ملوك طيبة أن يميا ، ومت ميتة البطل الباسل .. » وصاح فيمن حوله ممن أذهلهم الحزن : « أحضروا الهودج الملكى . هيا يا نيام » وأتى بعض الضباط بالهودج ، واشتركوا جميعا فى رفع الجثة ووضعوها عليه ، ورفع ييى تاج مصر المزدوج ووضعوه إلى جانب رأس الملك ، ثم سجدى الجثة ، وحملوا الهودج فى صمت أليم ، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح ، ووضعوه فى الخيمة التى فقدت حاميتها وسيدها إلى الأبد ... وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسى الأذقان ، ترهقهم كآبة ، ويغشى أبصارهم حزن عميق ، فالتفت إليهم ييى بصوت قوى النبرات :

— أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن ، فليس الحزن بمعيد سيكترع إلينا ، ولعله ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذى قتل من أجله ، لقد وقعت الواقعة ، ولكن المأساة لم تتم فصولها ، فينبغى أن نثبت فى مراكزنا حتى نؤدى واجبنا كاملا .

فرفع الرجال رءوسهم ، وأصروا بأسنانهم صرير العزم والقوة ، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأئما يعاهدونه بها على الموت ، فقال ييى :

— إن الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه ، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة ، ولكن واجبنا لم ينته بعد ، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة ، كما كنا للحياة الشريفة .

فصاحوا جميعا قائلين :

( كفاح طيبة )

— لقد ضرب لنا مليكتنا المثل الأعلى ، وسوف نتبع أثره .

فتهلل وجه ييبى وقال بسرور :

— حبيبت من جنود بواسل ، والآن اصغوا إلى ؛ لم يبق من جيشنا إلا أقله ، ولكننا سنخوض المعركة غدا على رؤوسهم حتى آخر رجل ، وسيكون من جراء قتالنا أن نعوق تقدم أبو فيس حتى تنهياً فرص النجاة لأسرة سيكنترع ، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة ، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهى ، وإن سكنت في الميادين إلى حين . سأفارقكم بعض يوم لأؤدى واجبى نحو هذه الجثة ونحو ذريتها الباسلة ، ثم أعود إليكم قبل مطلع الفجر ، ثموت معا في ميدان القتال .

طلب منهم أن يصلوا جميعا أمام جثة سيكنترع ، فجنثوا وجثا واستغرقوا في صلاة حارة ، وختم ييبى صلاته قائلا :

— أيها الرب الرحيم ، تغمد مليكتنا الباسل برحمتك في جوار أوزوريس ، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته . كى نلقاه في العالم الغربى بوجوه لا يخرىها لقاءه . ثم نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل المودج إلى السفينة الفرعونية ، والتفت نحو رفاقه وقال :

— أستودعكم الرب وإلى اللقاء القريب .

سار خلف المودج حتى وضعوه في المقصورة ، ثم قال لهم :

— حين تبلغ بكم السفينة طيبة ، سيروا به إلى معبد آمون ، وضعوه في البهو المقدس ، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتى أوافيكم . وعاد القائد إلى عجلته ، وأمر السائق بالمسير إلى طيبة ، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهباً ..

\* \* \*

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم ، تحت ستار الظلام الذى يغشى معابدها ومسلاتها وقصورها ، في غفلة عما يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام ،

فأخذ سبيله رأساً إلى القصر الفرعوني ، وأعلن الحرس حضوره ، فجاء رئيس الحجاب على عجل ، ورد تحيته ، وسأله بقلق :  
— ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال يببى بلهجة دلت على الجزع :  
— ستعلم كل شيء في حينه أيها الحاجب الأكبر ، والآن استأذن لي في المثول بين يدي ولي العهد ...

فغادر الحاجب الحجرية غير مرتاح البال ، ثم عاد بعد زمن قصير وهو يقول :  
« إن صاحب السمو ينتظرك في جناحه الخاص » . فمضى القائد إلى جناح ولي العهد وأدخل عليه في بهو الاستقبال . وسجد بين يديه ، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقعة الأمير . فلما رفع يببى رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب ، وعينيه الذابلتين ، وشفثيه الممتعتين ، ساوره القلق ، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلاً :

— ماذا وراءك أيها القائد يببى ؟ ... فلا بد من أمر جليل دعاك إلى مفارقة الميدان في هذه الوقت ؟ ..

فقال القائد بصوت دلت لهجته على الحزن والكآبة :  
— مولاي ، ما تزال الآلهة — لأمر تخفى على حكمته — غاضبة على مصر وأهلها ... !

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق ، وأدرك ما يدل عليه من الأخبار المخزنة فتساءل في قلق وجزع :

— هل أصيب جيشنا بكارثة ؟ ... هل يطلب والدي مددا ؟ .  
فأطرق يببى وقال بصوت خافت :

— وأسفله يا مولاي ، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب .  
ففزع الأمير كاموس قائماً ، وصاح به :  
— هل أصيب والدي حقاً ؟ .

فقال يبي بصوته الثقيل الحزين :  
— سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة .

وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجل أمرتكم العظيمة .  
فقال كاموس وهو يرفع رأسه :  
— رباه ... كيف تمكن لعدوك من ابنك المخلص ... رباه ما هذه الكارثة التي تنزل بمصر . ولكن ما جدوى التشكي ؟ ليس هذا وقت البكاء . لقد سقط والدى فينبغى أن أحل محله ... صبرا أيها القائد يبي حتى أعود إليك في لباسى الحربى .

ولكن القائد يبيى قال بسرعة :  
— لم اجىء إلى هنا يا مولاي لأدعوك إلى القتال ، لقد قضى الأمر وأأسفاه .. فحذجه بنظرة حادة قاسية ، وسأله :  
— ماذا تعنى ؟ .

— لا فائدة ترجى من القتال ...  
— هل قضى على جيشنا الباسل ؟ ..  
فأطرق يبيى وقال بحزن شديد :  
— خسزنا المعركة الفاصلة التي كنا نرجو أن نحرر بها مصر ، وتحطمت قوة جيشنا الأساسية ، ولن ترجى فائدة حقة من القتال ، ولن نقاتل إلا لكى نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتا للنجاة ..  
— أتريد أن نقاتل حتى نفر فرار الجبناء ، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو ؟ ...

— بل فرار الحكماء الذين يقدرون العواقب وينظرون إلى المستقبل البعيد ، ويسلمون بالهزيمة إذا وقعت ، ثم ينسحبون من الميدان إلى حين ، ثم لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوهم عودا على بدء ... مولاي تفضل وادع

ملكات مصر ، وليكن الأمر شورى ...

ودعا الأمير كاموس حاحبا ، وأرسله في طلب الملكات ، ومضى يتمشى جيئةً وذهابا يتناوبه الحزن والغضب ، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة ، وجاءت الملكات : توتيشيرى وأحوتبى فستكىموس مسرعات ، وحين وقعت أبصارهن على القائد يبى وقد انحنى لهن تحية ، ورأين الكدر مرتسما على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء ، شعرن بخوف واضطراب ، وزاغت أبصارهن ، وكان كاموس جزعا فدعاهن إلى الجلوس ، وقال :

— سيداتى .. دعوتكن لأقص عليكم أنباء أسيفة ..

وتريث لحظة كى لا يفاجهن ، ولكنهن فزعن ، وقالت توتيشيرى بقلق :

— ماذا وراءك أيها القائد ييبى ؟.. كيف حال مولانا سيكتنرع ؟..

فقال كاموس بصوت متهدج :

— جدتاه ... إن قلبك لذكى الشعور ، صادق الحدس ... فليثبت الله قلوبكن ، ويعنكن على تحمل الخبر الفاجع ... لقد قتل أبى سيكتنرع فى الميدان ، وخسرنا المعركة ...

وعطف رأسه عنهن حتى لا يرى آلامهن ، وقال وكأنه يحدث نفسه المكلومة :

— قتل أبى وهزمت جيوشنا ، وقضى على قومنا أن يعانوا الآلام جميعا ، من أدنى الجنوب إلى أقصى الشمال ...

ولم تتمالك توتيشيرى فزفت زفرة حرى كأنما مجت بها فتات كبدها ، ووضعت يدها على قلبها وهى تقول :

— ما أشد جرح هذا القلب العجوز !..

أما أحوتبى وستكىموس فقد ثقل رأسهما ، ووكفت أعينهما دماعا ساخنا ، ولولا وجود القائد بينهما لانتحبتا انتحابا عاليا .

ووقف ييبى وسط ذاك الحزن الشامل صامتا ، مجروح الصدر ، مضطجع

الحواس جميعا ، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى ، وخشى أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال :

— يا ملكات أسرة مولاي كاموس ، تجلدن وتصبرن ، فإنه وإن كان الخطب أكبر من العزاء ، فإن الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن ، أستحلفكن بذكري مولاي الشهيد أن تكفكفن دموعكن ، بالصبر ، وتحزنن أمتعكن ، فليست طيبة بالمشوى الأمين غدا ...  
فسألته تويتشيري قائلة :

— وجثة سيكنترع ؟  
— فلتطمئن نفسك يا مولاتي ، سأؤدى واجبي نحوها كاملا ...  
فسألته مرة أخرى :

— وإلى أين تريد أن نذهب ؟

— مولاتي ، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى حين ، ولكن لنا وطن آخر أمين في بلاد النوبة ، ولن يطمع الرعاة في النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشق على نفوسهم المترفة ، فلتكن لكم مهجرا آمنا ، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا ، وهنالك يعاودكم التفكير في هدوء ، فترعون أمل المستقبل الجديد ، وتتعهدونه بالصبر والبسالة ، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس ..

وكان كاموس يصغى إليه من هدوء وسكينة ، فقال له :

— فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة ، أما أنا فأؤثر أن أسير على رأس جيشي أقاسمه حظه في الحياة أو الموت .

فساور القلق القائد ، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسل ، وقال :

— مولاي ، لن أستطيع أن أثنيك عن إرادة تريدها ، فلاكل الأمر إلى حكمتك ، ولا أسألك إلا أن تصغى إلى قليلا ...

مولاي ، إن القتال اليوم عبث ضائع ، ومعناه الهلاك المبين ، ومصر لن تنتفع



بموتك ، ولا موتك بخفف عنها بعض آلامها ، ولكنها بغير شك تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض ... إن كل أمل في النجاة منوط بحياتك ، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة ... فاجعلوا « نياتا » هدفكم ، وشدوا إليها الرحال ، وهناك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح . لن تنتهي هذه الحرب كما يتمنى أبو فيس ، فلا يتسنى لشعب كشمينا عاش سيذا كريما ، أن يطرُق على الذل طويلا . ولسوف تحرر طيبة يا مولاي في تاريخ قريب : ولن تقف بك الحماسة عند حد ، فطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك .. إن سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعيني في ظلمات الحاضر الكئيب ، فلا تتردد واعزم عزيمة الحكمة . والآن وقد بينت لك نهج الحق ، فاقض بما أنت قاض ..

وكف يبى عن الكلام ، وما كفت عيناه عن التوسل والرجاء ، ونحوت توتيشيرى إلى كاموس ، وقالت بصوت خافت :  
— لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله .

فأحس القائد البائس بندى الأمل ، وانتعش فؤاده بالفرح ، ووجم كاموس ولم ينيس بكلمة ، فقال يبى وكان يكذب أول مرة في حياته :  
— أما أنا يا مولاي فسألحق بكم بعد حين .. فأمامى واجبان مقدسان : أن أعنى بجنة مولاي ، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة ، لعلها بالمقاومة الناجحة تساو على التسليم بأحسن الشروط .

ولم تمالك الملكات فأجهشن بالبكاء ، وغلب التأثر يبى فقال :  
— ينبغي أن نواجه محتنتا بشجاعة ، وليكن لنا في سيكترع أسوة حسنة ، ولنتذكر دائما يا مولاي أن العجلات الحربية هى سبب هزيمتنا ، فإن كررت يوما على العدو ، فلتكن العجلات عتادك . والآن سأذهب لأدعو العيد إلى حمل الثمين الغالى من ذهب القصر وسلاحه ، بما لا غنى عنه ..  
نطق القائد يبى بهذه الكلمات ، ثم ذهب ..

وانبعثت في القصر حركة نشاط شاملة ، وأضيئت حجراته جميعا ، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة ، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونية في سكون محزن ، تحت رقابة رئيس الحجاب ، وكانت الأسرة الفرعونية في أثناء ذلك تنتظر في حجرة الملك كاموس ، تشملها الكآبة والصمت ، ينكس أفرادها النبلاء رءوسهم ، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن ، ولبثوا على حالهم ما لبثوا ، حتى دخل عليهم الحاجب حور ، وقال بصوت خافت :

— انتهى كل شيء يا مولاي .

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق ، فخفقت قلوبهم ، ورفعوا وجوههم ذاهلين ، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد . أحقا انتهى كل شيء .. وهل أزفت ساعة الوداع ؟... أهذا آخر العهد بالقصر الفرعوني ، وطيبة المجيدة ، ومصر الخالدة ؟.. وهل يحرم عليهم غدا أن يروا مسلة أمنمحت ، ومعبد آمون ، والسور ذا الأبواب المائة ؟.. أتضيق بهم طيبة اليوم ، وتفتح أبوابها غدا لأبو فيس يعتلى عرشها ويتحكم في الرقاب ؟! كيف يغدو الهداة ضالين ، والسادة فارين ، وأصحاب الدار مهاجرين ؟.

ورآهم كاموس لا يتحركون ، فقام في تناقل وتمتم قائلا بصوت خافت : « هلموا نودع حجرة أبي » . فقاموا قومته ، وسارت الأسرة في خطى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل ، ووقفوا أمام بابها المغلق متبیین لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن ، ولا كيف يلقونها مهجورة . وتقدم حور خطوة ، وفتح الباب ، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة ، وعلقت

أبصارهم في رفق وحنان بالديوان العظيم ، والمقاعد الوثيرة ، والمناضد الأنيقة ، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك ، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيا أمام الرب آمون ، فخالوه جميعا جالسا على ديوانه ، متكئا على وسادته ، يتسم إليهم ابتسامته الحلوة ، ويدعوهم إلى الجلوس ، وأحسوا جميعا روحه تغمرهم وتطوف بهم ، فحلقت أرواحهم الحزينة في سماء الذكريات ، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة ، اختلطت آثارها بتنهدهم العميق ودعمهم المسيل ..

ثم تنبه كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله ، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال ، ولثم جبينها ، وتنحى جانبا ، فتقدمت توتيشيرى ومالت على الصورة الحبيبة ، وقبلتها قبله أودعتها آلام قلبها التاكل المحزون ، وودعت الأسرة جميعا صورة ربها المفقود ، ثم مضوا إلى الخارج في صمت حزين كما دخلوا ..  
ورأى كاموس الحاجب حور في انتظارهم ، فسأله قائلا :  
— وأنت يا حور ؟ ..

— إن واجبي يا مولاي أن أتبعكم كالكلب الأمين ..

فوضع الملك يده على كتفه شاكرا ، وتقدموا جميعا في الردهات ذات الأعمدة ، يسير بين أيديهم القائد ييبى ، ويمشى كاموس في طليعة أسرته ، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونفرتارى ، فتوتيشيرى ، فالملكة أحويتى ، ثم الملكة ستكموس ، ويتبع الجميع الحاجب حور . وهبطوا الأدراج إلى ممر الأعمدة ، وانتهاوا إلى الحديقة ، فسأيرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل ، فبلغوا السفينة ، وانتقلوا إليها واحدا إثر واحد حتى شملتهم جميعا . وحم الفراق ، فألقوا نظرة الوداع ، تاهت أعينهم في الظلام المخيم على طيبة كأنه يلفها في ثوب حداد ، فتقطعت قلوبهم ، وتصدعت صدورهم وعصر ألم الحزين قلوبهم الكسيرة وشعلهم الصمت فكانهم ذابوا في الظلام ووقف ييبى بين أيديهم لا ينبس بكلمة ، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين ، حتى تنبه الملك

لوجوده ، فتهد وقال له :

— أزفت ساعة الوداع .

فقال ييبى بصوت متهدج حزين ، وهو يغالب عواطفه مغالبة شديدة :

— مولاي ، وددت لو أدركنى الموت قبل أن أقف موقفى هذا ، فليكن عزائى أنكم تسيرون فى سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة ، وأرى أن ساعة الوداع قد أزفت حقا كما تقول يا مولاي ، فسيروا يحفظكم الرب برحمته ، ويكلاًكم بعين رعايته ، وإنى أرجو أن يمتد لى العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم ، كى يسعد قلبى برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى .. الوداع يا مولاي .. الوداع يا مولاي ..

— بل قل إلى الملتقى ..

— نعم إلى الملتقى يا مولاي ..

واقرب من مولاه وقبل يده ، وكان ما يزال يغالب عواطفه كى لا ييل يدا كريمة بدمعه ، وقبل يد توتيشيرى ، والملكة أحتوبى ، والملكة ستكىموس ، وولى العهد أممس ، وشقيقته الأميرة نيفرتازى ، ثم شد على يد الحاجب حور بمودة ، وحنى رأسه للجميع ، وغادر السفينة فى سكون وذ هول ..

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف فى الماء ، وأخذت تبتعد عن الشاطئ على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها ، وقد تجمعوا على حائطها ، تودع أرواحهم الخافقة طيبة .. وأفلت منه زمام نفسه فبكى .. واستسلم للبكاء حتى انتفض جسمه . وما زال يتبع السفينة العزيزة وهى تغوص فى الظلمة حتى ابتلعها الليل .. ثم تهد من أعماق صدره ، ولبث على حاله لا يدرى كيف ييرح الشاطئ ، وقد أحس وحشة كأنه هوى حيا إلى قبر عميق . ثم تحول عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطى بطيئة متثاقلة ، وكان يتمتم قائلاً : مولاي .. مولاي .. أين أنت ؟ أين أنتم يا سادتى ؟ يا أهل طيبة ، كيف تهجعون والموت يخلق فوق رقابكم ؟ هبوا .. لقد قتل سيكننرع

وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام .. هبوا .. لقد خلا القصر من سادته .. وودع طيبة ملوكها .. وسيعتلى عرشكم غدا عدو لكم . كيف تنامون ؟ هبوا .. إن الذل وراء الأسوار ..

ثم أخذ القائد مشعلا ، وسار في ردهات القصر حزينا واجما يتنقل من جناح إلى جناح ، فوجد نفسه أمام بهو العرش ، واتجه نحوه واجتاز عتيته وهو يقول : « معذرة يا مولاي عن دخولي دون إذن » وتقدم بخطى متخاذلة على ضوء مشعلة بين صفى المقاعد التى كانت تعقد عليها الأمور وتبرم ، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة ، وجثا على ركبته ، ثم سجد وقبل الأرض بين يديه ، ثم وقف أمامه حزينا ، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشا ، وقال بصوت جهر :

— حقا لقد انطلوت صفحة جميلة خالدة ، وسنكون نحن الموقى غدا أسعد أهل هذا الوادى الذى لم يعرف الليل أبدا ، أيها العرش .. يحزننى أن أبلغك أن صاحبك لن يعود إليك ، وأن وريثك مضى إلى بلد بعيد ، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحى الكلمات التى تشقى مصر غدا ، فلن يجلس عليك أبو فيس ، ولتطوى كما انطوى سيدك ..

وكان يبنى قد اعتزم أن يدعو جنودا من حرس القصر ، ليحملوا العرش إلى حيث يريد .

وحمل الجنود العرش كما أمروا ، ووضعوه على عربة كبيرة . وتقدمهم القائد إلى معبد آمون ، وهناك حملوا العرش مرة أخرى ، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدس . وفي المتوى المقدس ، قريبا من قدس الأقداس ، رأوا الهودج الفرعوني محاطا بالجنود والكهنة ، فوضعوا العرش إلى جانبه ، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئا . وأمر يبيى الجنود بالانصراف ، وطلب حضور الكاهن الأكبر ، وغاب الكاهن زمنا يسيرا ، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذى قدر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعا ومد يده للقائد وهو يقول بصوته الهادئ :

— طاب مساؤك أيها القائد .

فقال يبيى بلهجة دلت على الاهتمام والجزع :

— وطابت لياليك يا صاحب القداسة .. هل تأذن لى بالانفراد بقداستك ؟ وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعا على تطلعهم وقلقهم حتى خلا المكان . وتنبه الكاهن الأكبر للهودج والعربة ، فبدا الانزعاج على وجهه ، وقال للقائد :

— ما الذى أتى بالعربة إلى هنا ؟ .. وما هذا الهودج ؟ .. وكيف تركت الميدان فى هذه الساعة من الليل ؟ ..

فقال يبيى :

— أصغ إلى يا صاحب القداسة ، فما من فائدة ترجى من التأتى ، أو من تهوين شأن ما نحن فيه ، ولكن ينبغى الإصغاء إلى حتى النهاية لأفضى إلى قداستكم بما عندى ، وأمضى إلى واجبى : لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد ، مصحوبة بالألم والفخار معا ، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر ، وقتل مليكنا

وهو يدافع عن وطنه ، ومزقت الأيدي الغادرة جثته الطاهرة ، واضطرت أسرنا الملكية إلى هجر طيبة ، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرا للملوكةم ولا نجدهم ..

مهلا يا صاحب القداسة مهلا .. لقد انتصف الليل أو كاد ، وواجبي يهيب لي أن أعجل . إن هذا الهودج يحمل جثة ملكنا سيكنزع وتاجه ، وإليك عرشه . هذا تراثنا القومي أعهد به إليك يا كاهن آمون . لكي تحفظ الجثة وتودعها مكانا آمينا ، وتحفظ هذه المخلفات في مستقر حرير .. والآن أستودعك الرب يا كاهن طيبة ، التي لن تموت وإن أثختها الجراح .

وكان الكاهن قد هم أن يقطع القائد من فرط انزعاجه ، ولكن القائد لم يمكنه ، فصمت صمتا ثقيلا ، وجهد جمودا مطلقا ، فكأنه فقد حواسه جميعا . وأدرك يبي ما يعانيه الرجل من الذهول والألم ، فقال :

— إني أستودعك الرب يا صاحب القداسة ، مطمئنا إلى أنك ستقوم بواجبك كاملا نحو المخلفات العزيزة المقدسة ..

وتحول القائد عنه إلى الهودج . وانحنى إجلالا حتى لثم غطاءه ، وأدى له التحية العسكرية ، ثم تقهقر إلى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه ، حتى بلغ السلم المؤدى إلى بهو الأعمدة ، فأدار ظهره وسار مسرعا لا يلوى على شيء إلى خارج المعبد ، وشعر بأنه قد آن له أن يلحق بضباطه وجنوده ، لهجم معهم المهجوم الأخير كما عاهدهم .

على أن استغراقه في واجباته لم ينسه أمرا ما تخايل لذاكرته حتى أحس له غمزا على قلبه لا يسكن ، ذكر أسرته ، إيانا زوجه وابنه الصغير أحبس ، وأهله جميعا الذين تضمهم مزرعته في ضواحي طيبة . ما أطول السفر .. إنه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته في الليل ، ولو فعل ما استطاع أن يفى بعهده لجنوده ولظنوه هاربا . فسيلقى حتفه دون أن يلقي نظرة وداع على وجه إيانا وأحمس .. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا ، وكان يتساعل محزونا : هل يترك الرعاة

صاحب أرض في أرضه ، أو صاحب مال لماله ؟ ، سيشرذ السادة غدا أو يقتلون في ديارهم ، وستغدو إباننا وأحمس بلا نصير .. وضاق الرجل ، ونازعه قلبه طويلا إلى بيته وآله ، ولكن قلبه كان في سبيل ، وإرادته الحديدية في سبيل سواء .. وتهد آسفا وهو يقول : « فلأكتب لها كتابا .. » وبسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيدة إبانة يقرئها السلام ويستودعها الرب ، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة ، ثم قص عليها ما وقع من أحداث ، وما صار إليه الجيش ومليكه . وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول — ولم يذكر النوبة لحكمة يريد بها — ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله ، وتفر وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج طيبة ، أو إلى الأحياء الفقيرة ، حيث يختلطون بعامّة الشعب ويشاركونهم مصائرهم . ثم باركها وبارك ابنه ، وختم كتابه بقوله : « سنلتقى حتما يا إبانا هنا أو في العالم السفلى » وأعطى الكتاب سائقه ، وكلفه أن يذهب به إلى قصره الريفي ويسلمه إلى زوجته ، ثم قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة في الظلام ، وهتف من صميم قلبه : « رباه .. احفظ بلذك .. الوداع يا طيبة .. » .

ثم أرخى العنان لجواديه ، فانطلقا به يعدوان في طريق الشمال .



وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل ، وكان الجيش الجريح نائما ، فمضى إلى خيمته وارتمى على سريره في إعياء وهو يقول : « فلنستجم قليلا لنموت ميتة تليق بقائد قوات سيكنترع » . وأغمض جفنيه . ولكن بعض أخيلة قامت غشاء كثيفا بين رأسه وبين النوم ، فتخايلت له أشباح الأهوال التي ابتلى بها في نهاره وليله ، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل ، ومولاه سيكنترع يسقط صريعا والرمح في جانبه ، وكاموس يثور غاضبا ، ثم يسلم محزونا ، وتوتيشيرى تئن من جرح قلبها العجوز ، ووداع إباناء وأحمس الصغير ، وتلك السحب المتليدة التي تتجمع في أفق الجنوب .. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج ، وركت وتهاقت بغير شعور منه ، فانساب النوم إلى جفونه .

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير ، فقام بحس نشاطا غريبا لا يتفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف ، وبرح خيمته إلى الخارج ، فسمع في سكون الفجر حركة تنتفض في أنحاء المعسكر ، ورأى أشباح رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين ، فاستقبلهم استقبالا حارا ، وكانوا قد قاموا في أثناء غيبته بعمل عظيم ، فقال رجل منهم :

— أرسلنا الجرحى في قوارب إلى طيبة ، وكذلك المصابين إصابات خفيفة ، لكي ينضموا إلى قوات الدفاع عن أسوار طيبة . وما من شك في أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط .

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة :

— إننا — معشر أهل الجنوب — تهون علينا الحياة في أوقات الحزن ، فما من رجل منا إلا نفذ صبره في انتظار المعركة الأخيرة .

وقال ثالث :

— ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا في هذه البقعة المقدسة ، التي ارتوت بدماء

مليكننا الزكية ...

فأثنى ييى عليهم جميل الثناء ، وقص عليهم ما وقع في طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية ، ولكنه لم يذكر لأحد المكان الذى قصدت إليه . وقد بلغ التأثير بالضباط مبلغا عظيما ، وهتفوا لكاموس الملك ، وأحمس ولى عهده ، والأم المقدسة توتيشيرى ..

وولت ظلال الظلام ، وانعكس الضياء الواضح على سماء الأفق ، فانتظمت صفوف الجنود تأهباً لمعركة الموت ، وكان ملك الرعاة يدرك ما حل بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم ، فأراد أن يصعقهم بقوات تشل فيهم كل مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة ، ليقتضى بضربة واحدة على الجيش الصغير الذى يعترض سبيله .. وحين تراءى الجمعان ، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافى ، وأطبق جيش أبو فيس على الجيش المصرى ، ودارت عجلة الموت ، وبذل المصريون كل ما فى طاقة البشرية من بسالة وبطولة ، لكنهم تساقطوا سريعا بطلا فى إثر بطل ، وداستهم أرجل الخيل بقساوة ، وبدا لعينى ييى أن المعركة تنتهى سريعا ، ولا سيما لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط ، ورأى جناحه الأيمن يقنى فناء عاجلا ، والعدو يوشك أن يحيط بهم ، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام ، وجال بنظره فى جيش عدوه ، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبو فيس وكبار قواده — وبينهم قاتل سيكنترع بغير شك — فجعله هدفه ، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره . ثم أمر سائقه بالاندفاع ، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه ، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات ، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة ، ومضت تدنو من أبو فيس حتى فطن الأكثرون إلى غرضها ، فتصايحوا غضبا وخوفا ، وقاتل ييى ومن معه قتال من جن بحب الموت . فتدلل عليهم الموت طويلا حتى

شقوا الصفوف إلى جبهة أبو فيس وقواده ، وهتالك وجد يبى نفسه محاطا  
بفرسان العدو من كل جانب ، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين  
الملك ، فقاتل قتالا عنيفا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه ، حتى ظن  
عدوه أنه شيء لا يموت ، وتكالبت عليه السهام والرماح ، والسيوف  
والخنجر ، فسقط كما سقط سيكتنزع لاحقا بحرسه البواسل ، وقد ضج الجيش  
من هجمته الهائلة . وكان القتال — في الميدان — في نهايته ، والمصريون يلفظون  
آخر أنفاسهم . فأمر أبو فيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذى انقض عليه خلال  
صفوفه المتراصة ! ونزل من عجلته وترجل دانيا منه ، حتى وقف على رأس  
الجثة ، وجعل يتأمل السهام المنغرسه في كل قطعة منه كشعر القنفذ ؛ ثم هز رأسه  
الكبير ضاحكا ؛ وقال لمن حوله :  
— لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا ..

واستيقظت طيبة كعادتها لا تدري عما سطر لها في لوح الأقدار شيئا ، وإذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان ، فتجمع الناس حولهم ، وتكاثروا بالأسئلة عليهم ، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إن الجيش هزم وفرعون قتل ، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول ، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانعاج ، وذاع الخبر في المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل ، فقارق الناس ديارهم ، وهرعوا إلى الطرق والأسواق ، وتجمعوا في دور الحكومة ومعبد آمون ليأمنوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم . أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين . وفروا جماعات إلى الجنوب أو اختفوا في ثنايا الأحياء الفقيرة ..

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسى وشهور ، وأن جيوش الرعاة تتقدم نحو طيبة لضرب الحصار حولها وإجبارها على التسليم . فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون في بهو الأعمدة بمعبد آمون ، وتشاوروا في الأمر ، وكانوا جميعا يدركون خطر الحال ويحسون دنو النهاية وعيث المقاومة . ولكنهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد ، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعه ، حتى ينالوا وعدا بحقق دماء الأهالي ، إلا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائر الغضب ، فقال لهم :

— لا تسلموا طيبة أبدا ، ولنقاوم حتى نموت كمليكنا سيكنترع ، إن أسوار طيبة لا تقتحم ، وإذا هددت حقا فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران ، ولا نترك لأبو فيس شيئا منها ينتفع به .

وكان أوسر آمون يهدر غاضبا ، ويلوح بيديه كأنه يخاطب ، ولكن الرجال

لم يتحمسوا لفكرته ، وقال نوفر آمون :  
— نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة ، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرد والجوع والبؤس ، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفف الآلام ونعصر الدمار ..

وفي أثناء ذلك كان الرعاة يهاجمون السور الشمالى بغير هوادة ، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة ، والقتلى تسقط من الجانبين . وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا إلى المقاومة ، ولكن أسطول العدو هجم على الأسطول المصرى بعد أن جاءه مدد جديد ، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصرى . وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة ، وأنزل جنودا كثيرين فى جنوبها ، فضرب حصاره الكامل حول المدينة ، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوما عنيفا ، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كل أمل فى إطالة المقاومة ، وهددت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ ؛ فلم ير الزعماء بدا من التسليم تفاديا من الكارثة العظمى ، وأوفدوا ضابطا يعلن وقف القتال ، ويستأذن فى قدوم رسول عن المدينة للتحدث فى شروط التسليم النهائية . وعاد الضابط بالموافقة ، فوقف القتال فى جميع الأسوار ، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولا .

وقبل الكاهن على غضاضة ، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة منقل الرأى كسير الفؤاد ، ومر فى طريقه بالفرق المختلفة مترابطة الصفوف فى قوة وصلف وزهو ، تحقق عليها الأعلام من كل لون . ثم وقفت العربية فترجل فى سكون ، ووجد فى استقباله بعض الضباط يتقدمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية ، عرفه من النظرة الأولى ، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذى حل بملوله الدمار بمملكة طيبة ، ولم يغب عنه ما فى استقباله من الشماتة المقصودة . وبدا الرجل صلفا متعجرفا مزهوا ، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخر عينه ، وقال ذون تحية :

— أرايت أيها الكاهن إلى أى مصر انتهى بكم رأى أميرآم ؟... إنكمم  
تتحمسون كثيرا وتحسون الكلام ، ولكن لا قبل لكم بالقتال ... ولقد قضى  
على مملكتكم بالزوال إلى الأبد ...

ولم ينتظر الحاجب كلاما فصار أمامه نحو خيمة الملك ، ورأى نوفر آمون  
الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر ، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو  
اللحي الطويلة .. ثم أذن له فدخل ، ورأى فى الصدر الملك أبو فيس فى زى  
الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكان مهيب الطلعة حاد البصر أبيض  
مشربا بحمرة ، مستمرسل اللحية جميلها ، وسط هالة من قواده وحجابه  
ومستشاريه ، فانحنى له الكاهن فى إجلال ، ووقف صامتا ينتظر أمره ، فقال  
الملك بلهجة ساخرة :

— أهلا بكاهن آمون الذى لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر .  
فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة ، فضحك الملك ضحكة عالية وسأله  
بتهمك :

— أجمت تملى علينا شروطا ؟

فقال نوفر آمون :

— بل جئت أيها الملك لأستمع إلى شروطك ، كما ينبغي لزعيم قوم خسروا  
معركتهم وفقدوا مليكهم ، وليس لى سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما  
شهر سلاحه إلا ذودا عن كيانه ..  
فهز الملك رأسه الكبير وقال :

— يحسن بك أيها الكاهن أن تصنى إلى ، إن قانون الهكسوس لا يتغير على  
مدى الأيام والأجيال ، وهو سنة الحرب والقوة إلى الأبد . نحن بيض وأنتم سمر ،  
ونحن سادة وأنتم فلاحون ، فالعرش والحكومة والإمارة لنا ، قتل لقومك : من  
يعمل فى أرضنا عبدا فله أجره ، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاهها  
فى غير هذه الأرض ، وقل لهم : إنى أهدر دم بلد كامل إذا امتدت يد بسوء إلى

أحد من رجالى . وإذا أردت أن أحقن دماء الناس — فيما عدا أسرة سيكتنرع — فليأت إلى سادتك بمفاتيح طيبة سجدا .. أما أنتم أيها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه إلى الأبد ...

ولم يرد أبو فيس أن تمتد المقابلة إلى أكثر من هذا ، فقام واقفا إيدانا بانتهائها ، فانحنى الكاهن مرة أخرى وفارق المكان .

وشربت طيبة الكأس حتى ثملتها ، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبو فيس وسجدوا له .. وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبو فيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة ..

وفى ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة ، وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة ، ثم احتفل بالنصر احتفالا عظيما اشتركت فيه الجيوش جميعا ، وقسم الأرض والأموال بين رجاله . فصار الجنوب ملك يده أرضا ورجالا .

## بعد عشرة أعوام

١

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة ، فبدت صفحة النيل تنفّس نسائم الغسق ، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالا . كان بحارتها نوبيين ، أما قائداها — اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة — فكانا مصريين كما يدل لون بشرتهما الأسمر ، وقسماتهما الواضحة . وكان أولهما شابا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره ، حبه الطبيعة طولا فارعا ، وقدا نحىلا دقيقا ، وصدرا عريضا متينا ، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق ، وعينه السوداء وان بالصفاء والحسن ، وأنفه المستقيم الأشم بالقوة والتناسق ، فهو من الوجوه التي أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معا ، يرتدى لباس التجار الأثرياء ، ويلف جسمه الرشيق في عباءة ثميّة ، قدت على صورة جسمه . وكان صاحبه شيخا في الستين ، يميل إلى النحافة والقصر ، بارز الجبهة في استواء وارتفاع ، تدل جلسته على الهدوء الذي يلازم الشيخوخة غالبا ، وأما نظرة عينيه فتنفذ إلى الأعماق .. وكان يبدو أن همه منصرف إلى العناية بالشاب ، أكثر مما هو منصرف إلى التجارة التي تحملها السفن ، فلما دنت القافلة من منطقة الحدود ، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدمة السفينة ، يتطلعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الخنين ، ثم سأل الشاب بحماس وجزع :

— هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر ؟ قل ماذا نحن فاعلون الآن ؟ ..

فقال الشيخ :



— نرسى القافلة على هذا الشاطئ ، ونبعث في قارب رسولا إلى الحدود ،  
يتغنى لنفسه سيلا يمهد به بقطع الذهب ..  
— إن اعتمادنا كله على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء  
الذهب .. أما لو خاب ظننا ..

وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح في عينيه القلق ، فقال الشيخ :

— ما دام الظن سوءا فإنه لا يجيب مع هؤلاء القوم ..  
وعدلت السفينة إلى الشاطئ ، فتبعها القافلة وألقت مراسمتها . واختار  
الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود ، وكان عظيم الحماسة قوى  
التصميم ، فلم يعترض الشيخ سبيله ؛ وانتقل إلى قارب وجدف بساعديه  
المفتولتين مفارقا القافلة نحو الحدود ، وتبعه الشيخ بعينه وهو يقول برجاء مؤثر :  
« أيها الرب المعبود آمون .. هذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل ؛  
أن يعز سلطانك ، ويرفع ذكرك ، ويحرر أبناءك ، فأيده يارب وانصره  
واحفظه .. » :

ومضى الشاب يجدف في قوة ، وظهره إلى هدفه ، يستدير ليتنظر وراءه كل  
هنية وقد اضطرم صدره بالحنين ، وأحس لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة  
جديدة ، خفق لها قلبه أيما خفقان ، ثم رأى في إحدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة  
تصعد نحوه معترضة سبيله ، فأيقن أن حراس الحدود تنهبوا له ، وجاعوا  
يتحققون من أمره . ودنا بقاربه من السفينة حتى سمع صوت الضابط الواقف في  
مقدمها يصيح به : « كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام ؟ .. » .

فصمت الشاب حتى شارف القارب السفينة ، ثم حيا الضابط ذا اللحية تحية  
إجلال وتعظيم ، وقال متبأها :

— باركك الرب ست أيها الضابط الباسل ، إني قاصد وطنكم المجيد بتجارة  
ثمينة .

فقطب الضابط جبينه وقال بفظاظة :

— خست أياها الأحق ، ألا تدرى أن هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام ؟ ..

فأبدى الشاب الجميل دهشة ، وقال :

— وماذا يصنع إنسان مثلى جمع متاعا ثمينا ليتقرب به من فرعون مصر المعبود  
ورجال مملكته ؟ ... هلا أذنت لى بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النيل ؟ .

فقال الضابط بوحشية :

— بل ستعود من حيث أتيت حيا ، إن لم ترغب فى أن تدفن حيث تثرثر ...

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب ، ورمى بها

تحت قدمى الضابط قائلا :

— نحن فى بلادنا نحب آلهتنا بتقديم الهدايا ، فاقبل تحيتى ورجائى .

فتناول الضابط الحافظة وفتحها ، وعثت أنامله بقطع الذهب ، فاختلفت  
أجفانه ، وردد بصره بينها وبين الشاب بذهول . ثم هز رأسه كأنه لا يخفى حنقه  
على الفتى الذى ثناه عن رأيه قسرا ، وقال بصوت هادئ :

— إن دخول مصر ممنوع ، ولكن قد تستحق رغبتك الشريفة استثناءك من  
أمر المنع ، فاتبعنى إلى حاكم الجزيرة .

وابتهج الشاب ، واتخذ مجلسه مرة أخرى فى القارب ، وشد على المجذاف بقوة  
ونشاط ، وانحدر متبعا السفينة صوب شاطئ بيجة : ورسست السفينة ثم  
القارب ، ووضع الشاب قدميه على الأرض فى حذر وإشفاق ، كأثما يدوس شيئا  
طاهرا مقدسا . وقال له الضابط مرة أخرى : « اتبعنى » . فتبعه على الأثر .

وبالرغم من تشدده فى التسلط على أعصابه ، أفلت زمامه وتمشت فى حواسه  
نشوة ، وعصر قلبه حنين سماوى ، فخفق قلبه خفقانا شديدا متواليا ، وجعل من  
شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعا . إنه فى أرض مصر . مصر التى يحفظ لها  
أجمل الذكريات ، وأفتن الصور وأبهج الآثار . إنه يود لو يترك وحيدا فيملأ

صدره من نسيمها العليل ، ويمرغ خديه بثرها .. إنه في أرض مصر .  
واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرة  
« اتبعنى » . فنظر فرأى قصرا جميلا يقف أمامه رجال مسلحون ، فأدرك أنه  
أمام قصر حاكم الجزيرة . ودخل الضابط ، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة  
التي تصوب نحوه من كل جانب .

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه ، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر في مظالمهم لغير الذهب ، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضى ، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة ، وعيناه اللوزيتان الحادثتان ، وأنفه البارز الأفتنى كأنه شراع قارب . وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة ، ونظرة تدل على الحذر والريبة ، فانحنى الشاب بين يديه بإجلال عظيم ، وقال بأدب بالغ :

— ندى الرب صباحك أيها الحاكم الجليل .

وكان الضابط حدثه عن القادم الغريب الذى يرمى فى غير مبالاة بحافظة ملائى بقطع الذهب الوهاج ، ويسوق قافلة محملة بالهدايا ليتقرب بها من سادة مصر ، فرد تحيته بإشارة من يده ، وسأله بصوت غليظ أجوف :

— من أنت ومن أى البلاد ؟

— أدعى يا مولاي إسفينيس ، من بلدة نباتا من بلاد النوبة .

فهز الرجل رأسه بارتياح : وقال :

— ولكنى أرى أنك لست نوبيا ، وإن صدق نظرى فأنت فلاح ..

فخفق قلب إسفينيس لهذا الوصف الذى نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحترار ، وقال :

— صدقت فراسة مولاي ، فأنا حقا .. فلاح . من أسرة مصرية هاجرت إلى

بلاد النوبة منذ أجيال ، واشتغلت بالتجارة عهدا طويلا حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة ، فانقطع رزقها .

— وماذا تريد ؟..

— لدى قافلة عملة بخيرات البلاد التي قدمت منها ، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر ..

فعبث الحاكم بلحيته ، وحذجه بنظراته المرتابة ، وقال :  
— أتعنى أنك تجشمت مشاق السفر ، لمحض التقرب والزلفى من سادة مصر ..

— سيدى الحاكم الجليل ، نحن نعيش فى بلاد ملأى بالوحوش والكنوز ، الحياة فيها جد قاسية ، والجوع والجذب ينشبان أظفارهما فى الرقاب ، نجيد صياغة الذهب ، ونضنى فى الحصول على قدح من الحبوب ، فإذا تقبل سادى هداياى ، وأذنوا لى بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال ، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان ، وبدلت بؤس قومى أنعما ..

فضحك الحاكم ضحكة عالية ، وقال :  
— أرى الأحلام تطيح برأسك .. أولست تبدأ بالسؤال والتضرع ؟ ولكنك ترجو أن يكمل مسعاك بإصدار أوامر فرعونية لمصلحتك .. حسنا .. الحمقى كثيرون .. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا ؟ ..  
فحنى إسفيس رأسه إجلالا ، وقال بإغراء التاجر الأريب :  
— هلا تفضل مولاي بزورة قافلتى ليطلع بنفسه على نفائسها ، ويختار ما يعجبه من كراهم جواهرها ؟

وتحركت لواعج النهم والجشع فى نفس الحاكم ، فاستطاب الفكرة ، فقال لإسفيس وهو يهيم بالقيام للذهاب معه :  
— سأمنحك هذا الشرف .

وتقدمه إلى السفينة الحربية ، ثم إلى القافلة ، وعرضت لناظره الحلى والجواهر والحيوان العجيب ، فشاهد النفائس بعين يلتهم فيها نور الجشع الخاطف .  
وأهدى إليه إسفيس صولجانا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرد والياقوت فتقبله بلا كلمة شكر ، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطا ثمينة ،

وأنشأ يقول لنفسه . لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول إلى مصر ؟ .. ليست هذه  
تجارة ، ولكنها هدايا تسبى العقول ، وسيرحب بها فرعون بغير جدال ، فإن  
حقوق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى . أو رفض مطلبه فلا شأن لي به .. وأمامي فرصة  
سائغة ينبغي أن أنتهزها ، إن ختزر حاكم الجنوب مغرم بكل نفيس ، فلأبعث  
بالتاجر إليه فيذكر لي صنيعة على ما أهديت إليه من كنز ، وما أنحت له من فرصة  
يزداد بها قربا إلى مولاه .. فإذا أراد يوما أن يختار لولاية من الولايات الكبرى  
حاكما ذكرني بلاريب :

وتحول نحو إسفينيس وقال :

— سأعطيك فرصة لتجرب حظك ، فسر توا إلى طيبة ، وهاك كتابا إلى  
حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك ، وتسأله الشفاعة في رجائك ..  
واستخف الفرع إسفينيس ، فانحنى للحاكم شكرا وارتياحا .

وكان أول كلمة نطق بها إسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته ، أن قال للشيخ الذى يلزمه :

— منذ هذه الساعة لأحمس هناك ولا حور ، ولكن إسفينيس التاجر ووكيله لاتو ..

فابتسم الشيخ وقال :

— نطقت بالحكمة أيها التاجر إسفينيس ..

ونشرت القافلة شرائعها ، وتحركت مجاديفها ، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها فى أمان وسلام . وكان إسفينيس ولاتو يقفان عند مقدم السفينة يكابدان شوقا واحدا . تكاد عيناهما تشرقان بالدمع . قال إسفينيس :

— بدء حسن .

فقال لاتو :

— نعم فلنصل للرب آمون شكرا ، ونسأله أن يسدد خطانا ويكمل مسعانا بالفوز المبين .

وجثوا على سطح السفينة وصليا معا ، ثم عادا إلى وقفتها . وقال إسفينيس :

— إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق عهدها ، فقد ظفرنا بنصف النجاح ، فنعطيهم ذهبنا ونأخذ رجالا ..

— اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب . ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام ؟.. إن الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس ؛ ولكنه كسلان يستخلم غيره ، ويتعالى على التجارة ، ولا يحتمل الحياة فى النوبة ؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلا بمن يتطوح مثل التاجر إسفينيس بحمله إليه ..

ومضيا معا يلقيان ببصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد الغارق في مجرى النيل ،  
يقلبان الطرف في خضرة ناضرة تكتنف القرى والداكر ، تخلق فوقها  
الأطيار ، وترعاها الثيران والبقر نشاوي ؛ والفلاحون يعملون هنا وهناك عراة  
لا يرفعون رؤوسهم عن الأرض ، فأثار منظرهم في صدر الشاب الحب  
والغضب ، واستعر قلبه حنانا وحنقا ، فقال :

— انظر إلى جنود أمنمحيت ، كيف يعملون عبيدا للبيض الحمقى  
المتعجرفين ذوى اللحي القذرة ..

وتقدم المسير بالقافلة ، فمرت بأmbos وسلسليس ومجنا ونخب وترت ، فلم  
يبق دون طيبة سوى ساعة ، وتساءل إسفينيس :

— أين ينبغي أن ترسو السفينة ؟

فقال لاتو مبتسما :

— في الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين ، وجميعهم  
مصريون خلص .

فأمن الشاب على قوله ، ولاحظ منه نظرة إلى الأمام فرأى على البعد سفينة  
تسير نحوهم فعلق بصره بها وهي تدنو ويذا ويذا ، حتى استطاع أن يتنورها ؛  
فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة ، تعلو وسطها مقصورة حسنة  
يتألق في جوانبها الفن الجميل ، فخال أنه رأى مثلها من قبل . ولكن لاتو في ذراعه  
ممتما :

— انظر .

فنظر الرجل وقال بسرعة :

— « ربا ! هذه سفينة فرعونية ، ( ثم استدرك ) إنها تسير بغير حرس ،  
فلعل راكبها أحد رجال القصر ، أو أمير يطلب الخلوة ..

ودنت السفينة فكادت تلتقي بالقافلة : وأثار منظر القافلة الغريب تطلع  
أصحابها ، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوارى ، تقدمتهن في أناة



كأنها شعاع من النور الساطع يغشى العيون ، شقراء يعث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض ، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية ، فأيقنا أن صاحبها أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم ..

ورأياتها تشير بأغلفتها إلى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاهها ، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوارى الحسان . فالتفت إسفينيس إلى الورا ، فرأى قزما من الأقزام التى ألقى بها يسير على ظهر السفينة ، فأدرك سر دهشة الأميرة الجميلة . ونظر إلى لاتو مبتسما أن لآقت إحدى الهدايا ما تستحق من التقدير . ولكن لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكثب . ونادى النسوة نوتيا ، فتقدم من حافة السفينة ، وصاح موجهها خطابها إلى لاتو بلهجة أمر لا يرد :

— قف أيها النوى وألق مراساتك ..

وأذعن إسفينيس للأمر ، وأصدر أمره إلى القافلة بالتوقف . ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التى ظهر بسطحها القزم ، وسأل النوى إسفينيس :

— ما هذه القافلة ؟ ..

— قافلة تجارة يا سيدى .

فأشار بيده إلى القزم ، وكان يفر إلى باطن السفينة ، وقال :

— هل يؤذى هذا المخلوق ؟

— كلا يا سيدى ..

— إن صاحبة السمو الفرعونى ترغب فى مشاهدة هذا المخلوق عن كئب .  
فهمس لاتو قائلا :

— هذا لقب ابنة فرعون ..

أما إسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال :

— حبا وكرامة ..

وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى السفينة الأخرى ، وصعد إلى

سطحها ليكون في استقبال الأميرة ، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهن من السفينة حتى بلغنها ، فصعدن إلى السطح تتقدمهن الأميرة ، فانحنى الشاب بين يديها في إجلال ظاهر ، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة ، ويتظاهر بالارتباك والاضطراب ، فقال بتلعثم :

— لقد أوليت قافلتى شرفا رفيعا يا صاحبة السمو ..

ثم رفع رأسه فشاهدهما عن كثب بعين خاطفة ، رأى وجها تجسم فيه الحسن والكبرياء ، ففيه من دواعي الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة ، ورأى عينين زرقاوين يتجلى في صفاتهما التعالي والإقدام . فلم تلق إلى تحيته بالا ، ودارت بعينها في المكان تبحث دون ريب عن القزم ، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب في آذان سامعيه :

— أين ذهب المخلوق العجيب الذي كان هنا ؟

فقال الشاب :

— سيكون بين يديك ..

وذهب إلى كوة تطل على باطن السفينة ، ونادى قائلا :

— زولو .

ومالبت أن ظهر رأس القزم من الكوة ، وتبعه جسمه ، ثم أقبل على صاحبه ، فأخذه من يده إلى حيث تقف الأميرة وجواربها وكان يسير ملقيا ب صدره إلى الأمام في خيلاء مضحكة ، وبرأسه الكبير إلى الوراء ، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار ؛ أما لونه فشديد السواد ، وأما ساقاه فمقوستان . قال له إسفينيس :

— حي مولاتك يا زولو .

فانحنى القزم حتى مسّ شعره المفلفل الأرض ، فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم :

— أحيوان هو أم إنسان ؟

— هو إنسان يا صاحبة السمو .

— ولماذا لا نعدده حيوانا ؟

— له لغته ودينه .

— يا عجبا ، وهل يوجد مثله كثيرون ؟

— نعم يا مولائي ، إنه ينتمى إلى شعب وافر العدد ، فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة يسددونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير ؛ ولكن قوم زولو يأمنون إلى الناس سريعا ويخلصون المودة لمن يصادقهم ، ويتبعونه كالكلب الأمين .

فهزت رأسها المكلل بمخصلات الذهب عجبا ، واقرت ثغرها عن در نضيد ، وتساءلت :

— وأين يعيش قوم زولو ؟

— في أقاصى غابات النوبة ، حيث يرقد النيل المعبود ..

— دعه يتحدثني إن استطعت .

— إنه لا يستطيع أن يتكلم لغتنا ، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر ، ولكنه سيحيى مولاته بلغته .

وقال إسفينيس للقرزم :

— ادع لمولاتك دعاء طيبا .

فاهتزت رأس القرزم الكبير كأنه يرعش ، ثم نطق بكلمات غريبة بصوت أدنى إلى الحوار ، فلم تملك الأميرة إلا أن تضحك ضحكة عذبة ، ثم قالت :

— حقا إنه غريب ، ولكنه قبيح لا يسرني أن أقنتيه ..

فبدا الأسف على وجه الشاب ، وقال بلباقة التاجر الماكر :

— ليس زولو يا صاحبة السمو خير ما في قافلتى .. إليك دررا تفتن النفوس وتسلب الألباب .

فتحولت في استهانة عن زولو إلى المتباهى بنفائسه ، وألقت عليه نظرة فاحصة لأول مرة ، فهاها طولها الفارع ونضارة شبابه ، وعجبت أن يكون هذا المظهر

( كفاح طيبة )

لتاجر من عامة الشعب ، وسألته :

— هل لديك حقا حلى تستحق الإعجاب ؟ ..

— نعم يا مولاتى ..

— إذا أرنى عينة .. أمثلة مما عندك .

وصفق إسفينيس ، فجاءه عبد فألقى إليه كلمات بصوت خافت ، فغاب الرجل هنيئة ، ثم عاد يحمل صندوقا من العاج بمعاونة رجل آخر ، فوضعه أمام الأميرة وفتحاه ، وتنحيا جانبا . ونظرت الأميرة فى داخل الصندوق ، واشترأت أعناق الجوارى ، فرأت ما يسر القلب من لآلىء لامعة ، وأقراط وأساور . وتفحصتها بعين واعية ، ثم مدت يدها البضة الرخصة إلى عقد آية فى السداجة والكمال ، قلب من الزمرد فى سلسلة من خالص الذهب ، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت :

— من أين لك بهذا الحجر النفيس ؟ .. ليس فى مصر نظيره ؟

فقال الشاب بابتهاج :

— إنه درة كنوز النوبة .

فتمتمت قائلة :

— النوبة .. بلاد زولو .. ما أجمله !

فابتسم إسفينيس وهو ينعم النظر إلى أناملها ، وقال :

— أما وقد حاز إعجاب سموك ، فلا يجوز أن يرد إلى صندوقه .

فقالت فى سهولة :

— نعم .. ولكن ليس لدى ثمنه .. هل أنت ذاهب إلى طيبة ؟ ..

فقال :

— نعم يا مولاتى .

فقالت :

— ما عليك إلا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه .

فانحنى الشاب إجلالا ، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو ، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق ، يتبعها الجوارى . وتعلقت بها عينا الشاب حتى غيبها عنه حائط السفينة ، ثم تنبه إلى نفسه ، فعاد إلى سفينته حيث كان لآتو ينتظره على جزع ، وقد بادره :

— ما وراءك ؟ ..

فأجمل له أقوال الأميرة ، وتساءل ضاحكا :

— ترى هل هي حقا ابنة أبو فيس ؟

فقال لآتو بامتعاض :

— هي الشيطانة ابنة الشيطان .

وأيقظته لهجة لآتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته ، وأدرك أن التي أثارت إعجابه ابنة مذل شعبه وقاتل جده ، وأنه لم يشعر في محضرها بما هي أهل له من المقت والكراهية . وتضايق وخشى أن تكون لهجته وهو يروى قولها نمت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين ، وقال لنفسه : ينبغي أن أكون أهلا للموجب الذى جئت هنا من أجله . ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق ، وحاول أن يحقد على الأميرة ، وأحس أنها قوة حقيقة بكل مقاومة .. لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد ، ولكن .. ربا .. إنها جمال يجرى في أعطافه السحر ، ولا يسع من يتلى برؤيته إلا أن يغمض جفنيه من قوة نوره ..

وذكر في تلك اللحظة زوجة الصغيرة نيفرتارى ، بقوامها المعتدل ، ووجهها الأسمر الحمرى ، وعينها السوداوين الساحرتين ، فلم يزد على أن تتم قائلا : يا .  
لهما من صورتين متناقضتين جميلتين .. .

وبدا سور طيبة الجنوى وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل  
والمسلات ، فبدأ الجلال مجسما يروع الناظرين . ورنأ الرجلان إلى المدينة بعينين  
لاح فيهما الحنين والحزن ، وقال لآتو :  
— حياك الرب يا طيبة المحيدة ..

وقال إسفينيس :

— وأخيرا يا طيبة .. بعد أعوام طوال فى المنفى ..  
وانعطفت السفينة نحو الشاطىء ، تتبعها على الأثر سفن القافلة ، وقد ضمت  
الشرع ورفعت المجاديف ، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى  
بالسمك ، منه ما تزال تدب فيه الحياة ، ويقف فى أوساطها الصيادون  
بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المفتولة ؛ فانبعث فى نفس إسفينيس  
نشوة طرب لرؤيتهم ، وقال لرفيقه :

— عجل بنا ، فنفسى مشوقة إلى محادثة أى من المصريين ..

وكان الجو معتدلا لطيفا ، والسماء صافية الزرقة ، والشمس مشرقة تغمر  
أشعتها النيل والشططان والحقول والمدن ، فنزلا إلى الشاطىء يلتفان فى عباةيهما ،  
ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار . وتقدما خطوات نحو  
حى الصيادين ، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطىء ، وأيديها آخذة بحبال  
الشباك التى ترميها الزوراق فى لجة النيل ، يغنون وينشدون . وكان غيرهم يملأ  
العربات بالسمك ، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة إليها صوب الأسواق .  
وعلى مسير دقائق من الشاطىء أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من  
الآجر ، مسقوفة بجذوع النخيل ، يدل مظهرها على السذاجة والفقر ..

وكان إسفينيس يتقل من مكان إلى مكان ، مرهف الحواس ، مفتوح العينين ، يتفحص الصيادين ويتبع حرركاتهم ويصغى إلى أناشيدهم ، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالإعجاب والإكبار . وخالط قلبه وهو يشق جموعهم إحساس ألفة وطمأنينة ومحبة ، فتمنى لو يستطيع أن يعترض سيلهم ويضمهم إلى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر . وذكر ما حدثته به عنهم توتيشيرى ؛ فقال لصاحبه :

— يا لهم من رجال أشداء صابرين ..

فقال لاتو ، وكان يشارك الشاب جل عواطفه :

— أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالا من الفلاحين . لأن الرعاة يترفعون عن النزول إلى حيهم ، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم . وقطب الشاب غضبا وتألما ولم يتكلم ، وجدا في السر يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما . ورأى إسفينيس عن كنب شابا يافعا يتجه نحوهما يحمل سلة ، وكان يرتدى وزرة قصيرة في خاصرته ، أما بقية جسمه فعار ، وقد بدا طويلا رشيقا ووجهه حسنا ، فقال إسفينيس :

— انظر يا لاتو إلى هذا الشاب ، ألم يخلق ليكون فارسا في فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه ؟.

واقرب الشاب منهما ، فرغب في الحديث إليه ، وحياه بيده وقال :

— حياك الرب أيها الشاب .. هل تدلنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر ؟  
فوقف الشاب عن المسير وهم بالرد عليه ، ولكنه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه ، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار ، وولاهما ظهره ومضى . فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار ، وتبعه إسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلا :

— أيها الأخ ، ما الذى جعلك تزهّد الرد علينا وتولينا ظهرك غاضبا ؟

فصاح الشاب مزجرا :

— إليك عنى يا عبد الرعاة .

وابتعد غاضبا وهو يوسع الخطى ، تاركا الشاب فى ذهول وحيرة . ولحقه لاتو وهو يقول :

— إنه لمجنون بلا ريب .

— ليس مجنونا يا لاتو ... ولكن لماذا يدعونى عبد الرعاة ؟

— إنه لدعاء يثير الضحك .

— نعم ... نعم ... ولكن هبنا صنائع الرعاة ، فكيف تؤاياه شجاعته فيتحدانا ؟ ... إنه لشاب جسور حقا يا لاتو ، ويدل سلوكه معنا على أن عشرة أعوام من حكم الرعاة الخانق لم تستطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة .

واستأنفا المسير حتى جذب انتباههما ضجيج عال ، فنظرا يمتنة فرأيا بناء كبيرا ذا مدخل صغير فى أعلى حائطه كوات ضيقة ، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات ، فسأل الشاب صاحبه :

— ما هذا البناء ؟

فقال لاتو :

— هذه حانة .

— هلم نشاهدها .

فابتسم لاتو وقال :

— هلم .



ودخلا الحانة معا ، فوجدا نفسيهما في مكان متسع حوائطه عالية ، يتبدل من سقفه مصباح يعلوه الغبار ، وفي وسطه وضعت الدنان ، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضه ذراع ، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون . ويقف في دائرته صاحب الحانة فيملأ الأقداح للملتفين به ، أو يرسلها مع ساق يافع إلى الجلوس في الأركان على أرض الحان . وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا أذاه أحد الشاربين بنكتة أو دعاية انتهره بخشونة وسب وقذف . فجال الرجلان يبصرهما في المكان ، وأراد إسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساق ، فأخذ صاحبه من يده ، وشق بمنكيه طريقا إلى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحدقة فيهما دهشة وإنكارا . وكان أحس شيئا من التعب ، فقال للخمار مسترسلا :

— أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين ؟

فازداد إنكار من حوله للهجته وغبابة طلبه ، أما الخمار فرد عليه دون أن يعيره التفاتا :

— عفوا أيها الأمير .. إن رواد حائتي ممن يقنعون باقتعاد الغبراء .

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكرارى ، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش ، فانحنى لهما في هزء ، وقال بتلعثم التمل :

— أيها السيدان ، إني أنزل لكما عن كرشي تقتعدانه .

وأدرك إسفينيس خطأه الذى أساء به إلى نفسه وإلى صاحبه ، فقال يصلح

منه :

— إننا نتقبل هديتك شاكرين ، ولكن كيف يمكن أن تشرب بخمرك المعتقة

بغير هذا الكرش ؟

وسر السكارى بسؤال الشاب ، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش :  
— أجب يا طونا .. أجب .. كيف تشرب أقداحك إذا نزلت للسيد من عن  
كرشك ؟

وقطب الرجل مفكرا ، وهرش رأسه متحيرا وقد تدلت شفته السفلى  
كقطعة كبدامية ، ثم أضاعت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحل السعيد ، وقال :  
— أشرب خمرا مهضومة ...

فضحك الرجال ، وسر إسفينيس لإجابته ، وقال له متلطفا :  
— إلى أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم ، الذى خلق ليكون زق  
بخر لا مقعد جلوس ..

ثم نظر إسفينيس إلى الخمار وقال له :  
— أيها الرجل الطيب املا ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا ..  
وملا الرجل الأقداح وقدمها إلى إسفينيس ، فخطف طونا قدحه وأفرغه في  
فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق ، ثم مسح فمه بكفه ، وقال لإسفينيس :  
— أنت غنى بلا شك أيها السيد الكريم .

فقال إسفينيس مبتسما :

— حمدا للرب على نعمائه .

فقال طونا :

— ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان ؟.

— صدقت فراستك ، وهل من تناقض بين أن نكون مصريين وغنيين ؟

— نعم ، إلا أن تكونا من المقربين إلى الحاكمين ..

وهنا قال رجل آخر :

— وهؤلاء يقلدون ساداتهم فلا ينزلون إلى مخالطتنا .

فتجهم وجه إسفينيس ، وعادته صورة الشاب الذى صاح به غاضبا منذ

حين قائلا : « يا عبد الرعاة » . ثم قال :

— نحن من مصريي النوبة ، وجئنا مصر حديثا ..

وساد الصمت ، ودوت كلمة النوبة في الآذان دويًا غريبًا ، ولكن كان القوم  
سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم ، فلا يقدرّون على جمع شتات  
أفكارهم ، فنظر أحد الرجال إلى كأس الرجلين اللذين لم يقرباهما ، وقال بلسان  
ثقيل :

— لماذا لا تشربان ، سقاكم الرب أطيب خمر الجنان ؟

فقال لآتو :

— قليلا ما نشرب ، وإذا ما شربنا فعلى مهل ..

فقال طونا :

— نعم ما تفعلان ، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة ؟ أما أنا فشقاى بمهتّى  
جلل ، وشقاى بأسرقى وأولادى أجل ، وشقاى بنفسى أفدح ومنأى ألا أرفع  
القدح عن شفتى .

فصفق ثمل مسرورا يقول طونا ، وقال وهو يهز رأسه طربا :

— هذه الخانة مهجر البائسين ، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشهية وهم  
جياع ، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة ، ومن يهرجون في أفراح السادة  
وهم جرحى قلوب ، صرعى نفوس ..

فقال رجل غير هذين :

— اسمع يا رجلى النوبة ، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه ، فيهوى  
فاقد الوعي ، ولأضرب لكما مثلا بنفسى ، فما من ليلة أعود إلى كوخى إلا  
محمولا ..

وانتفض إسفينيس ، وأدرك أنه بين جماعة من مبغضى البشر ، وسألهم :

— هل أنتم صيادون ؟

فقال طونا :

— جلنا صيادون .

وهز صاحب الحانة كفيه استهانة ، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله :

— أما أنا فخمارة يا سيدى .

فقهقه طونا ، ثم أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير القامة ، نحيف القد ، دقيق الأطراف ، واسع العينين براقهما ، ثم قال :

— وإن أردت التدقيق فهذا الرجل لص ..

فنظر إسفينيس إلى الرجل بغرابة ، فارتبك ، وأراد أن يطمئننه فقال :

— لا يساورك القلق يا سيدى ، فأنا لا أسرق فى هذا الحى جميعه .

وعلق طونا على قول الرجل بقوله :

— يعنى أنه لما كان لا يوجد فى حيننا ما يستحق مشقة السرقة ، فهو يعاشرنا

كأحدنا ، ويمارس فنه فى أطراف طيبة ، حيث المال موفور ، والسعادة وارقة الظلال ..

وكان اللص نفسه ثملا ، فقال بلهجة الاعتذار :

— لست لصا يا سيدى ، ولكننى سائح يضرب الأرض ويشرق ويفرب كما

تسوقه قدماه ، فإذا عثرت فى سبيلى بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة ، هديتها إلى مأوى ، وهو كوخى فى الغالب ..

— وهل تأكلها ؟

— معاذ الرب يا سيدى ، إن الطعام الحسن يسمم بطنى ، ولكنى أبيعها لمن

يشترى .

— ألا تخشى الخفراء ؟

— أخشاهم أكبر خشية يا سيدى ، لأنه غير مسموح بالسرقة فى هذا البلد

لغير الأغنياء والحكام ..

فأمن طونا على قول اللص قائلا :

— القاعدة المتبعة فى مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء ، ولكن لا يجوز أن يسرق

الفقراء الأغنياء .

وكان يتكلم وعيناه تحديقان في القدحين المترعين بنهم وجشع ، فغير مجرى الحديث وقال باستياء :

— لماذا تتركان قدحيكما فتنة للشاربين ؟

فابتسم إسفينيس وقال مسترسلا :

— هما لك يا طونا .

فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين ، مرسلا لمن حوله نظرات وعيد ، ثم أفرغهما في جوفه قدحا إثر قدح ، وتهد بارتياح . وأدرك إسفينيس معنى الرعيد الذى يهدده ، فطلب للقريين منه جعة ونيذا عما يشتهون ، فشرب الجميع وضجوا فرحين ، وانطلقوا في الأحاديث والغناء والضحك . وكان الشقاء والفقر يرسمان على وجوههم جميعا ، ولكنهم بلوا في تلك الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حسابا للغد . واندفع إسفينيس في جوههم جذلا مسرورا ، تعتاده الكتابة بين الحين والحين . وقضى بينهم زمنا ليس بالقصير ، حتى دخل الحانة رجل تدل هيئته على أنه منهم ، فحياهم بإيماء وطلب قدحا من الجعة ، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدل على شيء :

— قبضوا على السيدة إيانا وساقوها إلى المحكمة ..

ولم يعره الأكترون التفاتا لما أذهل الشراب من عقولهم ، وسأله آخرون :  
— وله ؟

— يقال إن ضابطا كبيرا من الرعاة اعترض سيلها على شاطئ النيل ، ورغب في أن يضمها إلى نسائه ، فقاومته ودفعته عنها .

فزجر الكثيرون ، وسأله إسفينيس :

— وما عسى أن تصنع بها المحكمة ؟

فحدجه الرجل بنظرة إنكار ، وقال :

— ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها ، فتأمر بجلدها

بالسياط ، والزج بها فى السجن .

فتجههم وجه إسفينيس وامتنع ، وقال للرجل :

— هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة ؟

فقال له طونا بتلعم :

— الشراب أولى بذهنك ، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضابط

الكبير ، ويعرض نفسه لعاقبة غير مأمونة .

وسأله الرجل الذى أذاع الخبر :

— هل أنت غريب يا سيدى ؟

فقال إسفينيس :

— نعم ، وأرغب فى حضور هذه المحاكمة ..

— أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت .

وفى أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه ، وقال هامسا :

— إياك والتورط فى أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة .

فلم يجب إسفينيس ، واقتفى من فوره أثر الرجل .

كانت المحكمة مكتظة بذوى الحاجات وأصحاب القضايا والشهود ، وامتألت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات ، وفى الصدر جلس القضاة ذوو اللحي المرسله والوجوه البيض ، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة نئى . فاتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين ، وقال لاثو لإسفينيس همسا : — إنهم يقلدون أنظمتنا فى ظاهرها .

وتفرسا فى الوجوه ، فأدركا أن أغلب الحاضرين من المكسوس . وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل ، ويصدرون الأحكام بسرعة وبلا رحمة ، وأصوات الشكوى والعيول تتصاعد من العرابة ذوى الأجسام النحاسية والوجوه السمر . وجاء دور السيدة المنشودة ، فنادى النادى قائلا :

— السيدة إيانا .

وتطلع الرجلان فى لهفة ، فرأيا سيدة تقترب من المنصة فى خطى مترنة ، يدل مظهرها على الوقار والحزن ، وتتجلى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين . وتبعها رجل من المكسوس يرتدى لباسا فخما ، فالتحنى للقاضى باحترام وقال :

— سيدى القاضى الجليل ، أنا وكيل القائد رخ — الذى اعتدت عليه هذه المرأة — وأدعى خم ، وسأثوب عن عظمتها أمام القضاة .

فهز القاضى رأسه موافقا ، مما أثار دهشة لاثو وإسفينيس ، ثم قال :

— بماذا يتهم مولاك هذه المرأة ؟

فقال الرجل بإنكار وامتناع :

— يقول مولاى إنه التقى بهذه المرأة صباح اليوم ، فرغب فى أن يضمها إلى جواريه ، فقابلت صنيعه بالإنكار والجحود ، ودفعته بوقاحة عداها اعتداء على شرفه العسكرى ..

فأثار حديث الرجل ضجة بين الحاضرين واستياء ، وتقاربت الرعوس فى همس واستنكار . وأشار القاضى للقوم بصولجانه ، فساد السكون ، ثم وجه سؤاله إلى المرأة قائلاً :

— ما قولك يا امرأة ؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها ، كأن اليأس من الإنصاف أفسدها أماناً من الخوف ، فقالت بهدوء :

— إن قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة ..

فغضب القاضى ، وقال منتهاياً إياها :

— حاذرى أن تقولى قولاً ينال من مقام المشتكى العظيم فتضاعف جرميتك ، قصى ودعى الحكم لنا ..

فاحمر وجه المرأة ارتباكاً ، وقالت وهى ما تزال تحافظ على هدوئها :

— كنت أسير فى طريقى إلى حى الصيادين ، فإذا عربة تعترض سبيلى وينزل منها ضابط فيدعونى إلى الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة . فارتعت وأردت أن أنحماة ، ولكنه أمسك يدى وقال لى إنه يشرفنى بضمى إلى نسائه فقلت له لى أرفض ما يعرضه لى . ولكنه سخر منى ، وقال لى إن رفض المرأة الظاهرى عين القبول ..

وأشار إليها القاضى إشارة أسكتها ، وكأنما ساءه أن تأتى على تفاصيل تخرج مقام الضابط ، فسألها :

— أجيى هل اعتديت عليه ؟

— كلا يا سيدى، لقد أصررت على رفضى، وحاولت التملص من يده، ولكنى لم أعتد عليه لا بيدي ولا بلسانى، ويشهد على قولى هذا جمع غفير من أهل الحى .



— أتعين الصيادين ؟

— نعم يا سيدى .

— هؤلاء لا تقبل شهادتهم فى هذا المكان المقدس .

فسكتت المرأة ، ولاحت فى عينها نظرة حيرة وارتباك ، فسألها القاضى :

— أليس لديك ما تقولينه غير ذلك ؟

— كلا يا سيدى ، وأقسم أنى ما آذيت به قول أو فعل ..

— إن المدعى عليك شخص كبير ، وقائد من قواد الحرس الفرعونى ، وقوله

حق حتى تقيمى الدليل على نقضه .

— وكيف لى بنقضه ، وقد رفضت المحكمة الإصغاء إلى شهودى ؟.

فقال القاضى بغضب :

— إن الصيادين لا يدخلون هذا المكان ، إلا إذا سيقوا إليه متهمين ..

وأعرض الرجل عنها ، وعدل إلى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأى حيناً ، ثم

اعتدل فى جلسته وقال موجها كلامه إلى السيدة إيانا :

— أينما المرأة ، لقد أراد بك القائد خيراً فجازيته أسوأ الجزاء ، والمحكمة تخيرك

بين دفع خمسين قطعة من الذهب ، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد ..

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدأ الرضى على الوجوه جميعاً ، إلا واحداً

صاح بصوت ناثر كأنما أفلت منه الزمام :

— سيدى القاضى .. هذه السيدة مظلومة بريئة .. فأطلق سراحها .. اعف

عنها إنها مظلومة ..

ولكن القاضى استولى عليه الغضب ، وحذج الصارخ بنظرة أسكته ،

وتوجهت إليه الأنظار من كل صوب فعرفه إسفينيس ، وقال لصاحبه دهشاً :

— إنه الشاب الذى أغضبه حديثنا معه ، واتهمنا بأننا عبيد الرعاة ..

وكان إسفينيس مغضباً متألماً ، فاستدرك يقول :

— لن أدع هذا القاضى الأحمق يزعج بهذه السيدة فى السجن .

فقال لآتو بقلق :

— إن مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة ، فاحذر أن ينقلب علينا عملك ..  
ولكنه لم يصغ إلى صاحبه ، وتريث حتى سمع القاضى يسأل المرأة قائلاً :  
— هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه ؟

فقام واقفا ، وقال بصوت جميل عذب النبرات :

— نعم يا سيدى القاضى ..

وانعطفت نحوه العروس تتفحص الكريم الجسور الذى تقدم لإنقاذ المرأة فى  
آخر لحظة ، ونظرت إليه المرأة فى ذهول ، وكذلك الشاب الذى دافع عنها  
بالبكاء والاستعطاف . أما وكيل القائد فصوب نحوه نظرة نارية برق فيها  
الوعيد ، ولكن الشاب لم يبال أحدا وسار نحو منصة القضاة بقامته الطويلة  
الرشيقة ، وبحياه الجميل الفاتن ، وأدى الغرم المطلوب إلى المحكمة ..

وتفكر القاضى مرتبكا ، وهو يسائل نفسه من أين لهذا الفلاح بالذهب ؟  
ومن أين له هذه الشجاعة ؟ .. ولم يجد بدا مما ليس منه بد ، فأقبل على المرأة قائلاً :

— يا امرأة .. اذهبي طليقة .. وليكن لك مما كدت تتردين فيه موعظة

ودرسا .

وغادروا المحكمة جميعا ، لاتو وإسفينيس والسيدة إيانا والشاب الغريب ،  
وفي الطريق نظرت المرأة إلى إسفينيس ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :  
— سيدى ، لقد أنقذتنى مرعوتك من ظلمات السجون ، فملكنت عنقى  
بجميل صنيعك ، وحملتني دينا لا أستطيع الوفاء به .

وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه مغرورتان بالدموع ، وقال  
بصوت متهدج :

— فليعف الرب عما سلف من سوء ظنى ، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا  
بإنقاذك أُمى من غيابات السجن وآلام الجلد .  
فغلب التأثر إسفينيس وقال برقة :

— لا عليكما من هذا ، لقد ابتليت أيتها السيدة بظلم قبيح . والظلم وإن وقع  
على نفس بعينها يسىء إلى النفوس العادلة جميعا ، وما فعلت إلا أن غضبت  
فنفست عن غضبى ، فلا دين هناك ولا وفاء ..  
ولم يقنع هذا القول السيدة إيانا ، فظلت على تأثرها تتعثر فى ارتياكها  
وتقول :

— ياله من عمل نبيل .. ياله من عمل يجلب عن الوصف ويعلو على المديح .  
وأما ابنها فكان لا يقل عنها تأثرا ، ورأى إسفينيس ينظر إليه فقال كالمعتذر :  
— ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاية ، لما يبدو عليكما من مظاهر  
الثراء ، فإذا بكما مصريان كريمان لا أدرى من أين جئتما . وقد أفسمت ألا  
أفارقكما حتى تنفضلا بزورة كوختنا الصغير ، لنشرب معا قدحا من الجعة  
احتفالاً بشرفنا بمررتكما ، فماذا تقولان ؟..

( كفاح طيبة )

ورأى الدعوة إسفينيس الذى كان يرغب فى الاختلاط ببني جلدته ،  
وكانت شهامة الشاب وجماله يجذبان به إليه ، فقال :  
— إننا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور .  
وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه ، ولكنها قالت :  
— أرجو المَعذرة لأنكما لن تجدوا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع .  
فقال لآتو بلباقة :

— إن فى صاحبي الكوخ غنى عن كل شيء ، ومع هذا فنحن تجار متعودون  
شظف العيش ووعثاء الطريق .  
ثم ساروا جميعا يشملهم شعور واحد بالموءدة ، كأنهم أصدقاء من عهد قديم .  
وفى أثناء الطريق قال إسفينيس لابن إيانا :  
— كيف ندعوك يا صاحبي ؟. أما أنا فأسفينيس ، وأما صاحبي فيدعى  
لآتو .

فحنى الشاب رأسه إكراما ، مبتسما وقال :  
— ادعوني أممس .

فخيل إلى إسفينيس كأن أحدا يناديه ، ونظر إلى الشاب نظرة غريبة ..  
وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة ، وكان ساذجا كأكوخ الصيادين ،  
يتكون من ردهة خارجية وحجرتين صغيرتين متداخلتين ، ولكنه كان على  
سذاجة أثائه وفقره الواضح نظيفا حسن الترتيب . فجلس أممس وضيافته فى  
الردهة ، وفتح الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره ؛ على حين  
ذهبت إيانا لتعد الشراب ، ولبثوا هنيئة صامتين يتبادلون النظرات ، ثم قال أممس  
بعد تردد :

— إنه من العجب أن يجد الإنسان مصريين فى مثل مظهر. كما الوجيه ، فكيف  
تركهما الرعاة تثران ولستا من صنائعهم ؟  
فقال إسفينيس :

— نحن من مصرىي النوبة ، ودخلنا طيبة اليوم ..  
فصقق الشاب بيديه دهشة وسرورا ، وقال :  
— النوبة .. لقد فر إليها كثيرون في أثناء غزو الرعاة لبلادنا ، فهل أنتما من المهاجرين ؟ ..

وكان لاثو بطبعه شديد الحذر ، فقال بسرعة قبل أن يجيب إسفينيس :  
— بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة ...  
— وكيف استطعنا الدخول إلى مصر ، وقد أغلق الرعاة الحدود ؟  
فأدرك الرجلان أن أحسن حل حادثة سنه يعرف أشياء كثيرة ، وكان إسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان ، فقص عليه قصة دخولهما مصر ، وفي أثناء حديثه عادت إيانا تحمل أقداح الجعة ، وسمكا مشويا ، فوضعت الشراب والطعام أمامهم ، وجلست تصغى إلى قصة إسفينيس حتى ختمها بقوله : « إن الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويغلب ألبابهم ، وسوف نمضى إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل ، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة ، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا » .. فقدمت لهما أقداح الجعة والسمك ، وقالت :

— إذا وفقنا إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين ، فلا الرعاة يرضون بالعمل في التجارة ، ولا المصريون في حالهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها ..

وكان لدى التاجرين ما يقولان في ذلك ، ولكنهما آثرا السكوت عليه . وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان ، وأثنيا على السيدة أجمل الثناء ، وأطريا مائدتها الساذجة ، فتورد وجهها ، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه . وبلغ منها التأثير مبلغا عظيما فقالت :

— لقد مددت إلى يدك الكريمة في الوقت المناسب ، وكم من مصريين بائسين تطحنهم رحي الظلم في الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين ..

وبدا أحس سريع التأثير . فما كاد يسمع أمه تقول هذا القول حتى تخرج وجهه باحمرار الغضب ، وقال بحدة :

— المصريون عبيد ، يلقي إليهم بالفتات ويضربون بالسياط . أما الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملوك جميعا فمن الرعاة . السلطان اليوم للبيض ذوى اللحى القدرة ، والمصريون عبيد فى الأراضى التى كانوا بالأمس أصحابها ..

وكان إسفينيس يرمى أحس فى أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح فيهما الإعجاب والعطف ، على حين ظل لاتو خافضا عينيه ليخفى تأثيره ، وسأله إسفينيس :

— وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم ؟

— نعم ، ولكننا جميعا نكظم الغضب ونحمل الإساءة ، شأن الضعيف الذى لا حيلة له . وإنى لأتساءل أما لهذا الليل من آخر ؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضى الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكنترع .. وخفق قلب الرجлан خفقة عنيفة ، وامتنع إسفينيس . ونظر لاتو إلى الشاب دهشا ثم سأله :

— كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنك ؟

— تحفظ ذاكرتى صورا قليلة قائمة ، ولكنها واضحة لا تزول ، لأيام الشقاء الأولى . ولكنى أدين لأمى بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التى لا تفتأ ترددها على مسمعى ...

فنظر لاتو إلى إباننا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة ، فأراد أن يسرى عنها فقال لها :

— أنت سيدة فاضلة وابنتك شاب نبيل ..

وقال لاتو لنفسه إن السيدة ما تزال تحاذر بالرغم من كل شىء ، وكان فى نيته أن يسأل عن بعض أمور تهمة ، فعدل عن هذا إلى المستقبل . وغير الشيخ مجرى

الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة ، فأعاد العطمأنينة إلى النفوس ، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعا شعور المودة الخالصة ، وحين هم التاجران بمبارحة الدار قال أحسن لإسفينيس :

— متى تذهب يا سيدى إلى حاكم الجنوب ؟

فقال إسفينيس وهو يعجب للسؤال :

— ربما ذهبت غدا .

— لى رجاء .

— ما هو ؟

— أن أصحبك إلى ضيعته .

فسر إسفينيس لذلك ، وقال للشاب :

— أتعرف الطريق إليها ؟

— حق المعرفة .

وحاولت إباننا الاعتراض على ابنها ، ولكنه أسكتها بإشارة عصبية من يده ،

فابتسم إسفينيس وقال :

— إذا لم يكن عندك مانع ، فستكون الدليل إليها ..

وانقضى النصف الأول من اليوم الثانى فى الإعداد لزورة الحاكم ، وكان إسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها ، ويعلم أن حياة آماله جميعا رهينة ببعض عواقبها ، وكذلك آمال من خلفهم وراءه فى نباتا يعترك فى نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل . فشحن سفينته بصناديق التحف والآلى ، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو ، وعدد كبير من العبيد . وقيل الأصيل وافاهما أحس ، فحياهما بفرح وقال :

— أنا منذ الساعة من عبيد كما ..

فتأبط إسفينيس ذراعه ، ومضوا ثلاثتهم إلى المقصورة . ثم أبحرت السفينة صوب الشمال فى جو رائق وريح مؤاتية ، وقد صمت من فى المقصورة ، واستغرق كل منهم فى تأملاته ، مرسلا بناظره إلى شاطئ طيبة . وعبرت السفينة أحياء الفقراء ، وأقبلت على القصور الشم الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز ، تهفو عليها الأطياف من كل نوع ولون ، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة ، تشققها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم ، وترعاها الثيران والبقر ، ويعكف عليها الفلاحون العراة الصابرون . وعلى الشاطئ أقيمت المنازل تعرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة . وكانت النسائم تعابث الأشجار حاملة فى حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران ، وشذا الأزهار والرياحين ، فأحس إسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق ، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج إلى الحقول محمولا على هودجة الملكى ، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيونه فرحين بطفولته الطاهرة ، نائرين الورد فى طريقه السعيد .



وأيقظه صوت أحبس وهو يقول :  
— ها هو ذا قصر الحاكم .

فتهد إسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشاب ، ونظر معهما لآتو وقد لاحظت في عيني الشيخ نظرة دهشة وإنكار .

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها ، فاعترض سبيلها زورق حربي غاص بالجنود ، وصاح بهم ضابط في عنف وعجرفة :  
— ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح .

قفز إسفينيس من المقصورة ، ودنا من حائط السفينة وحيا الضابط باحترام وقال :

— معى رسالة خاصة إلى صاحب العظمة حاكم الجنوب .

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية ، وقال :

— أعطنيها وانتظر .

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عبائه وأعطاه للضابط . وتفحصه هذا بأناة ، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة ، ونادى حارسا فنأوله الرسالة . فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر ، وغاب زمنا يسيرا وعاد مسرعا إلى الضابط وأسر إليه كلمات ، فأشار الضابط إلى إسفينيس أن يدنو بسفينته ، فأمر الشاب ملاحيه بالجدف حتى رست السفينة في مرفأ القصر ، وقال له الضابط :

— إن صاحب العظمة ينتظرك ، فاحمل إليه بضاعتك ..

وأصدر الشاب أمره إلى التوبيين ، فحملوا الصناديق وبينهم أحبس ، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو . وقال لآتو للشباب وهو يودعه :  
— فليكتب الرب لك التوفيق .

ولحق إسفينيس بالقافلة ، يقطعون جميعا أرض الحديقة المعشوشبة في سكون شامل .

مضى التاجر لمقابلة الحاكم ، فقاده خادم إلى بهو الاستقبال ، وتبعه عبده بأثقالم ، ووجد الشاب نفسه في بهو فائق الترف عظيم الأناقة ، يتجلى الفن في أرضه وحوائطه وسقفه ، وفي الصدر منه جلس الحاكم على متكأ وثير ، في جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين . وكانت ملامح وجهه الكبير قوية واضحة ، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة والبسالة والصفاء . فأشار لإسفينيس إلى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم . واقترب من وسط البهو خطوات ، ثم انحنى إجلالا للحاكم وقال :

— حياك الرب المعبود ست أيها الحاكم الأجل .

فألقي عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة ، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع ، وبدأ على وجهه الارتياح لرؤيته ، وسأله :

— أقدم أنت حقا من بلاد النوبة ؟

— نعم يا مولاي .

— وماذا تبغى من وراء رحلتك هذه ؟

— أطمع أن اهتدى إلى سادة مصر تحفا مما يوجد في بلاد النوبة ، آملا أن تروقه فيطلبوا المزيد منها .

— وماذا تطلب أنت لقاء ذلك ؟

— بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال .

فهز الحاكم رأسه الكبير ، وقد لاحت في عينيه نظرة ساخرة ، وقال بصراحة :

— أراك حديث السن ولكنك جسور مغامر ، ومن حسن طالعك أنى أحب

المغامرين ... والآن أرئى ما تحمل من التحف ..  
ودعا إسفينيس أحس فاقرب الشاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميه  
صندوقه ، وفتح التاجر فيدا ما بداخله من الياقوت صيغ حليا مختلفة أشكالها ،  
فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيها الجشع والطمع والإعجاب ، ومضى يقلبها بين  
يديه ، ثم سأل الشاب قائلا :

— هل يوجد من هذه الحلى كثير في النوبة ؟  
فأجاب إسفينيس بلباقة ، وكان أعد الجواب من قبل أن يدخل مضر :  
— إنه لمن أعجب الأمور يا مولاي أن توجد هذه الأحجار الكريمة في أقاصى  
أدغال النوبة ، حيث تأوى الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة ..  
ثم عرض على الحاكم صندوقا من الزمرد ، وثانيا من المرجان ، وثالثا من  
الذهب ، ورابعا من اللؤلؤ . وتفحصها الرجل على مهل مبهورا حتى بدا فى النهاية  
كالشم النشوان ، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزراف والقرود وهو  
يقول :

— ما أجمل هذا الحيوان فى حديقة القصر .  
فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه : « ياله من شاب كالشيطان لا يقاوم .. »  
وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج ، وبدا زولو بخلفه  
الغريب ، فلم يتالك الحاكم أن قام واقفا ، ودنا من الهودج ودار حوله وهو  
يتساءل :

— يا للعجب .. أحيوان هو أم انسان ؟  
فقال إسفينيس مبتسما :  
— بل إنسان يا مولاي من شعب جم العدد .  
— هذا أعجب ما رأيت وما سمعت ..  
ونادى الرجل عبدا وقال له :  
— ادع الأميرة أمريدس وزوجى وأخى .

وجاء الذين دعاهم الحاكم ، ورأى إسفينيس أن يخفض بصره تأدبا ، ولكنه سمع صوتا رخيما زلزلت له نفسه زلزالا شديدا يقول :

— لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم ؟..

فاختلس نظرة إلى الداخلين ، فرأى في مقدمتهم الأميرة التى زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمردى ، وكان منظرها كما عهدده يغشى العيون ، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد ، فأيقن الشاب أن الحاكم خنزور وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة . على أنه رأى وجها آخر ليس بالجديد عليه ، وهو وجه الرجل الذى تبع الأميرة وزوج الحاكم ، فقد كان القاضى الذى حكم على إباننا بالأمس ، وقد وضع له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك فى أن الأميرة والقاضى عرفاه كذلك ، لأنهما ألقيا عليه نظرة ذات معنى . وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت ، فانحنى للأميرة وقال :

— تعالى يا صاحبة السمو انظرى إلى أنفاس ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها . ودار على الصناديق المحملة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو ، فأقبلوا عليها فى شغف ودهشة وأعجاب . ونال القزم قسطه من الإنكار والغربة . وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجابا ، وكانت مغرمة بالجواهر غراما يضرب به المثل ، فأقبلت على صناديق العاج أيما إقبال . أما القاضى فتحول إلى إسفينيس وقال له :

— كنت بالأمس أسائل نفسى عن مصدر ثروتك ، وقد عرفت اليوم كل شئ ..

فقلب الحاكم وجهه فيهما ، وقال لشقيقه :

— ماذا تعنى أيها القاضى سنموت ؟.. هل عرفت هذا الشاب قبل الآن ؟  
— نعم يا سيدى الحاكم ، رأيته بالأمس فى المحكمة ، والظاهر أنه عظيم  
الاعتداد بنفسه وبثروته ، فقد تبرع بخمسين قطعة من الذهب لينتقد فلاحه متهمة  
بإهانة القائد رخ من السجن والجلد ، فترى يا سيدى أن القائد أصيب فى يوم  
واحد بفلاحه تتناول عليه وبفلاح يتحدى غضبه ..  
فضحكت الأميرة أمريدس ضحكة رقيقة ساخرة ، وقالت وهى تلقى نظرة  
على وجه الشاب :

— وما وجه العجب فى ذلك أيها القاضى سنموت ؟.. أليس من الطبيعى أن  
يشمر فلاح للدفاع عن فلاحه ؟..

— الحق يا مولاتى أن الفلاحين لا يقوون على شىء ، ولكنه الذهب وسحره .  
وقد صدق من قال إنك إذا رغبت فى أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثم اضربه بالسوط .  
أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة ، فقال :  
— إن التاجر شاب جسور ، وما اقتحامه حدود بلادنا إلا آية من آى  
شجاعته . مرحى .. مرحى .. ليته كان رجل قتال لأقاتله ، فقد صدىء سيفى  
من طول انزوائه فى غمده ..

فقالت الأميرة أمريدس بلهجتها الساخرة :

— كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضى سنموت وهو يدينى ؟

— أتقولين يدينك يا صاحبة السمو ؟.. يا لها من كلمة ..

وضحكت من دهشة الحاكم ، وقصت عليه كيف رأت القافلة ، وكيف  
جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل ، وكانت تروى قصتها بلهجة  
دلت على ما تتمتع به من حرية وجسارة ، وميل إلى السخرية والفكاهة ، فزالت  
دهشة الحاكم خنزر ، وقال لها مداعبا :

— لماذا اخترت قلبا أخضر يا صاحبة السمو ؟.. فإننا نعلم معنى القلب

الأبيض والقلب الأسود ، ولكن ما معنى القلب الأخضر ؟  
فقال الأميرة ضاحكة :

— وجه سؤالك إلى بائع القلب ؟

وكان إسفينيس صامتا منصتا تعلقه الكتابة ؛ فقال :

— القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان ..  
فقال الأميرة :

— ما أشد حاجتى إلى هذا القلب ، لأنى أحس أحيانا أنى قاسية حتى ليلدلى  
أن أقسو على نفسى ..

وكان القاضى سنموت يطيل النظر فى تلك الأثناء إلى زولو ، وحاول أن يحول  
انتباه زوج شقيقه إليه ، ولكنها أثبت أن تتحول عن صناديق الأحجار الكريمة ،  
فقال القاضى وقد تأفف من منظر القزم :

— يا له من مخلوق قبيح .

فقال إسفينيس :

— إنه من شعب من الأقزام ، لا تروقههم صورتنا ، ويعتقدون أن الخالق شوه  
ملاحظها وقبح أطرافها ..

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة ، وقال :

— إن قولك هذا أعجب من زولو نفسه ، ومن كل ما تحمل من غريب

الحيوان والنفائس .

وقال سنموت وهو يحدج إسفينيس بنظرة ارتياب :

— أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته ، فمن المؤكد أن أولئك

الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنى للحسن أو القبيح ..

ورنت الأميرة أمرىدس إلى القزم كالمعتذرة ، وقالت :

— هل تستقبح النظر إلى وجهى يا زولو ؟

فعاد خنزري إلى قهقهته ، واختلج قلب إسفينيس لما رآه من روعة حسننها وفتنة دلالها ، وقد تمنى في تلك اللحظة أن يديم إليها النظر . وساد الصمت بعد ذلك ، فأدرك الشاب أنه قد آن وقت الانصراف وخشى أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذى يهمه ، فقال للحاكم :

— هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع في تحقيق آمالى فى ظل رعايتك الكريمة ؟

ففكر الحاكم وعبث يده بلحيته الغزيرة السوداء ، ثم قال :  
— لقد مل قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف والنعيم ، وإنهم ليترفعون بطبعهم عن التجارة ، فلا سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلا بالمغامرين من أمثالك . ولكنى لا أحب أن أعطيك كلمتى الآن ، فينبغى أن أحدث قبل ذلك مولاي الملك . وسأرفع إلى ذاته العليا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقنى على رأىى .  
فانشرح صدر إسفينيس وقال :

— سيدى الحاكم ، إنى أحتفظ لمولانا فرعون بهدية نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا .

فتفرس الحاكم فى وجهه مليا ، وخطرت له فكرة يتقرب بها إلى مولاه فقال :  
— فى ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك ، فتقدم إليه هديتك التى لا شك أنها لاثقة بالمقام الأعلى .. فأخبرنى عن اسمك ومقامك ..  
— أدعى يا مولاي إسفينيس ، وأقيم حيث ترسو قافلتى على شاطئى حتى الصيادين جنوب طيبة .

— سيأتيك رسولى فى يوم قريب .

وانحنى الشاب فى إجلال عظيم ، وبرح المكان يتبعه عبيده . وكانت الأميرة تنظر فى وجهه وهو يتحدث الحاكم عن آماله ، ويصغى إليه ، وتبعته بنظرها وهو

يبرح المكان ، فعجبت لآى النبل والحسن البادية على وجهه وقامته ، وأسفت أن يكون حظه من الدنيا التجارة وحمل الأقرام . أواه .. كم تمت أن تجد هذه القامة فى جسم واحد من قومها الميالين إلى البدانة والقصر ، ولكنها وجدتها فى جسم مصرى أثمر يتجر فى الأقرام .. وأحست أن صورة هذا الفتى الجميل تحرك عاطفة فى نفسها .. فبدت كالغاضبة ، وولت الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو ..



وعاد إسفينيس والعبيد في أثر مرشدهم إلى الحديقة ، فتنسم نسمة من ريح  
طيبة هدأت من وجدانه الثائر ، وتنفس تنفسة عميقة امتلأ بها صدره ، وكان يعد  
نتيجة رحلته هذه توفيقا عظيما . ولكنه كان يفكر في الأميرة أنريديس ويتمثل  
وجهها النوراني وشعرها الذهبي وشفيتها القرمزيتين ، والقلب الزمردى المدلى  
على صدرها الناهد .. رياه !.. ينبغي أن يتعاضى عن المطالبة بثمنه ليظل قلبه وقلبها  
معا .. وقال لنفسه : إنها ربيبة النعيم والحب ، تظن على غير شك أن الدنيا ما فيها  
رهن إشارة من أصبعها ، وجسورا ضحوكا : ولكنه ضحك مترف لا يخلو من  
القسوة ، تضاحك الحاكم وتزأ بتاجر غريب ولما تبلغ الثامنة عشرة ، ولو رأيته  
غدا على متن جواد تريض سهما ما حق لي العجب ..

ثم بصح نفسه ألا يستسلم للتفكير فيها ، ولكى يعمل بنصيحته عاود التفكير  
في توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر . إنه حاكم جبار قوى عظيم الشجاعة ، ولكنه  
طيب القلب ، وربما كان عظيم الغباوة أيضا . وإن نزوعه إلى الذهب عظيم كعامة  
قومه ، وقد هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت  
والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة شكر .. ولكن هذا الجشع هو الذى فتح له  
أبواب مصر ، وبلغ به قصر الحاكم ، وسينتهى به قريبا إلى قصر فرعون . وكان  
أحمس يسير على مقربة منه ، فسمعه يهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلا :  
« شارف » فظنه يخاطبه . فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلة أزهار  
ويضرب في الحديقة بخطى واهنة ، وسمع الشيخ الصوت الذى يناديه ، فالتفت  
فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمن يناديه .. ولكن أحمس تماماه وولاه  
قفاه ، فدهش إسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة ، ولكن الفتى خفض نظره ولم

ينبس بكلمة .

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو في انتظارهم ، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد . فابتسم إسفينيس وقال له :  
— وقفنا بفضل الرب آمون .

ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف ، فأقبل الشاب عليه يحدثه حديث المقابلة ، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء . فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحمس متكئا على حائط السفينة يتتحب كالأطفال ، فراعهما منظره ، وتذكر إسفينيس ما غمض عليه من سلوكه في الحديقة ، فدنا منه يتبعه لاتو ، ووضع يده على منكبه وقال له :

— أحمس ما الذى ييكيك ؟

ولكن الفتى لم يجبه ولم يع مما قال شيئا ، واستسلم للبكاء في حزن عميق غلبه على أمره وأفقدته وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به ، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما ، وأحضر إسفينيس له قدحا من الماء وقال له :

— ما الذى ييكيك يا أحمس ؟.. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذى دعوته

شارف ؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء :

— كيف لا أعرفه ؟. كيف لا أعرفه ؟.

فسأله في غرابة :

— من هو ؟. ولماذا تبكى هذا البكاء ؟.

وأخرجه الحزن عن صمته ، فباح بما في صدره قائلا :

— آه يا سيدى إسفينيس ، إن هذا القصر الذى دخلته خادما من خدمك هو

قصر والدى ..

فبدت الدهشة على وجه إسفينيس ، وتفرس لاتو في وجهه ياهتمام شديد ، أما

الشاب فاستدرك قائلا وهو في غيوبة الحزن الشديد :

— هذا القصر الذى اغتصبه الحاكم خنزرو هو مهد طفولتى ومرتع صباى ،  
وبين جدرانها العالية قضت أمدى البائسة عهد الشباب والنعم فى كنف والدى قبل  
أن تقع القارعة فى أرض مصر ، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة .

— ومن كان أبوك يا أحمس ؟

— كان أبى قائد جيش مليكنا الشهيد سيكنرع . .

فقال لاتو :

— القائد ببى ؟ .. يا إلهى .. حقا هذا قصر القائد الباسل .

فنظر أحمس إلى لاتو بدهشة وسأله :

— هل كنت تعرف أبى أيها السيد لاتو ؟

— وهل وجد فى جيلنا من يجله ؟

— إن قلبى يحدثنى بأنك من السادة الذين شردهم الغزو ..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد ببى وسأله :

— وكيف انتهت حياة القائد الباسل ؟

— استشهد يا سيدى فى الدفاع الأخير عن طيبة ، أما والدتى فعملت بوصيته  
وفرت بى فى جمع من السادة إلى حى الفقراء حيث نعيش الآن ، لقد تشنت سادة  
طيبة الأقدمون . وتخفى قوم منهم فى أسمال بالية وهاجروا إلى حى الصيادين ،  
وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول ، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته  
فانقطع ما بينهم وبين العالم ، وخلا الجو للبيض الغرباء ذوى اللحن يمشون فى  
الأرض مرحا ، ويملكون كل شىء . وكان خنزرو أسعد القوم حظا فزوجة الملك أخته ،  
ووجه ضيعة أبى وقصره ، ونصبه حاكما على الجنوب جزاء ما اقترفت يده الأثيمتان ..  
فسأله لاتو :

— وأى ذنب اقترفه الحاكم ؟

وكان أحمس سكت عن البكاء ، فقال بلهجة تنطوى على الغضب الشديد :

— يده الأثيمة التى أردت مليكنا سيكنرع .

وانتفض إسفينيس كمن مسته نار حامية ، ولم يطلق قعودا فانتصب واقفا متوعدا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب في الأفئدة ، في حين أغضى لاثو الطرف ممتقع الوجه لاهت الأنفاس ، وردد أحس بصره بينهما فوجد أخيرا من يشاركه عواطفه المضطربة ، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

— ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسي ..

وبلغت السفينة مرفأها ، وكانت الشمس تنغمس في النيل والشفق يخضب الأفق ، فقصدوا إلى بيت إيانا ، ووجدوا السيدة تشعل مصباحها . فلما شعرت بمقدمهم تحولت إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب ، ففقد منها لاثو وإسفينيس وانحنيا لها في إجلال ، وقال الشيخ في صوت رزين :

— طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم يبيى ...

ففاضت الابتسامة من شفيتها ، واتسعت حلقها دهشة وانزعاجا ، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب ، وأرادت الكلام فامتنع عليها ، فاغرورت عيناها بالدموع ، فدنا منها أحس ووضع يدها بين راحتيه ، وقال لها بخنان :  
— أماه لا تخافى ولا تحزنى ، وقد علمت ما أولانى هذان السيدان من الجميل ، واعلمى إلى هذا أنهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذى شردهم الطغيان ، نازعهما الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرة أخرى ..

فسكنت نفس المرأة ومدت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص ، وجلسوا جميعا متقاربين ، وقال إسفينيس :

— إن فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا الباسل يبيى ، الذى قضى في الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل ، إلى ابنه الشاب المتحمس أحس .. فقالت إيانا :

— وإنى لجد سعيدة أن تلقى إلى المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال

العهد القديم ، فتذاكر معا أيماننا الخوالى . ونشعر بنحاضرنا شعورا واحدا . أما  
أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه ، وقد دعاه أبوه تيمنا باسم أحمس  
حفيد مليكنا سيكنترع وابن ملكنا كاموس — وقد ولدنا فى يوم واحد — طيب  
الرب مساءه حيثما كان ..

وبسط لائو كفيه مؤمنا على قولها ، وقال بصدق وإخلاص :  
— ليحفظ الرب صديقنا أحمس ، وليحفظ سميهِ العظيم حيثما كان ...

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرة إيانا ، فعاشوا جميعا أسرة واحدة لا يفترون إلا في الثلث الأول من الليل ، وعلم الرجلان أن حى الصيادين مكتظ بالسادة المختفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين ، فسر لذلك الرجلان ، وأرادا أن يتعرفا إلى بعض البارزين منهم ، وأفضيا برغبتهما إلى أحسن بعد أن استوثقا من إخلاص القوم ، ورحب الفتى برغبتها ، واختار أربعة من أقرب المقرين إلى والدته هم : سنبل وهام وكوم وديب ، وأسر إليهم بحقيقة التاجرين ، ودعاهم يوما إلى داره حيث وافاهم لاتو وإسفينيس . وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء ، وزرة وسترة من الكتان البالية ، فرحبوا جميعا بالتاجرين وتبادلوا التحيات بحرارة دلت على الصدق والمودة ، قال أحسن :

— إن من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين ، وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة ، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون ..

وسأل هام التاجرين :

— هل أنتما من طيبة أيها السيدان ؟

فقال لاتو :

— كلا يا سيدى . ولكننا كنا يوما من ملاك أمبوس ..

فقال سنبل :

— وهل هاجر إلى التوبة كثيرون مثلكما ؟ ...

فقال لاتو :

— نعم يا سيدى ، وفي نباتا خاصة يوجد مئات من المصريين ، ومن أمبوس

وسيين وهابو ومن طيبة نفسها ..

فتبادل الرجال النظرات ، ولم يكن يرتاب منهم أحد في التاجرين بعدما قص عليهم أحسن ما صنع إسفينيس لأمه في المحكمة ، فتساءل هام :  
— وكيف تعيشون في نباتا أيها السيد لاتو ؟  
— عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم ، ففي النوبة تجود الأرض بالذهب وتشع بالغلل ...

— ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتد إليكم أيدي الرعاة .  
— دون شك ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين .  
— ألا يوجد لنا في الجنوب قوة حربية ؟  
— بلى ، ولكنها قوة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصرى على حفظ الأمن في البلاد .

— وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو ؟  
— إن النوبيين يحبوننا ويرضون بحكمنا طائعين ، ولذلك لا يلقي رؤوم أية مشقة في حكم البلاد بقوة صغيرة لا يعتد بها ، ولو شقوا عصا الطاعة ما وجلوا قوة تؤدبهم ...

فلاححت الأحلام في أعين الرجال ، وكان أحسن قص عليهم كيف تمكن التاجران من اجتياز الحلود وزيارة الحاكم ، وكيف أن إسفينيس سيقدم إلى أبو فيس هدية يوم الاحتفال بعيد النصر ، فتساءل هام بامتعاض :  
— وما تبغى من وراء تقديم هديتك إلى أبو فيس ؟  
فقال إسفينيس :

— أن أثّر جشعه ، فيأذن لى بالتجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب ...

فسكت الرجال ، وسكت إسفينيس ساعة يفكر ، وبداله أن يخطو خطوة جديدة في سبيل مشروعه ، فقال باهتمام :

— أصغروا إلى أيها السادة ، ليس هدفنا الذى نرمي إليه التجارة ، وما ينبغى أن

تكون التجارة هدف قوم قدموا إليكم في بيت أرملة قائندا العظيم يبيى ، ولكننا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة ، وأن نستعين بقوم منكم كعمال في الظاهر فنحملكم إلى إخواننا في الجنوب . سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب والرجال ، وربما كررنا يوما بالرجال فقط ...

فاستمع الجميع في دهشة ممزوجة بفرح ، وأشعت أعينهم نورا خاطفا ، وصاحت إيانا قائلة :

— ربه ! ما هذا الصوت الجميل الذى يحى في أنفسنا همد الأمل .

وصاح هام قائلا :

— يا إلهى ... إن الحياة تدب في مقبرة طيبة .

وهتف كوم :

— أيها الشاب الذى يعث صوته القلوب الميتة ، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل ولا مستقبل ، يعودنا شقاء حاضرننا فلا نجد منه مهربا إلا في تذكر الماضى المجيد والتحسر عليه ، وها أنت ذا تزيع الستار عن مستقبل باهر ...

فانشرح صدر إسفينيس وأفعم قلبه آملا ، وقال بصوته الجميل المثير :

— لا ينفع البكاء يا أيها السادة ، فإن الماضى يوغل في القدم والفناء ما دمم تقنعون بالتحسر عليه ، وما يلبث مجده أن يصبح قريبا إذا توثبتم للعمل له . فلا يجوزكم أن تكونوا اليوم تجارا ، فإنكم في القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض وتذل لهم الحصون ، ولكن أصدقوني هل تتقون بإخوانكم جميعا ؟

فقالوا في نفس واحد :

— ثقتنا بأنفسنا ..

— ألا تخشون العميون ؟

— إن الرعاة جبايرة بغير عقول ، وقد اطمأنوا بقوتهم إلى استعبادنا عشر

سنين فهم لا يجاذرون .

فصفق إسفينيس بيديه فرحا وقال :



— اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشروا بالأمل الجديد ، واجمعوا بيننا وبينهم في كل حين لتبادل الرؤى والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب ، وإذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين ، فأولى بكم الغضب .

فأمن الرجال على قوله متحمسين ، وقال نايب :

— نحن غاضبون أيها الشاب النبيل ، سيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضبا من

إخوان نباتا ...

وحيا التجارين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن ، وسمع الرجال نباتا تنهد وتقول :

— رباه !.. من يدلنا على أسرة مليكتنا الشهيد ؟.. وفي أي ركن من الأرض

هو ؟..

ومضت أسابيع وكان إسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة . كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين في بيت إيانا ، وكانا يكشفانهم بأمال المصريين المهاجرين فيشان في نفوسهم الأمل والحياة ، ويصبان في عزائمهم القوة والجلاد ، حتى بات حي الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التي يدعى فيها إسفينيس إلى القصر الفرعوني .

وتوالى الأيام حتى كان يوم جاء حي الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو إسفينيس ، ثم سلمه كتابا من الحاكم يميز له دخول القصر الفرعوني في ساعة سماها من يوم العيد ، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور ، وأشرق في نفوسهم الأمل ..

وفي ذلك المساء نامت القافلة ، ولبت إسفينيس منفردا على ظهر السفينة في هدأة وجلال الليل الساكن ، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النبيل دررا ولؤلؤا لامعا متوهجا ، فدخلته رقة ، وأثلج صدره الرضا ، وطاب لخياله أن يتردد بين الماضي القريب والحاضر الغريب . فتمثل ساعة الوداع في نباتا ، وجدته توتيشيرى تبشره بأن روح آمون أوحى إليها أن ترسله إلى مصر ، وقد

وقف أبوه كاموس قزينا منه يوصيه بصوته الجمهورى المؤثر . وذكر أمه الملكة  
ستكيموس وهى تلثم جبينه ، وزوجه نيفرتارى وهى تلقى عليه نظرة الوداع من  
خلال أهدابها المبتلة .. فلاحت فى عينيه نظرة حنان كنور القمر فى صفائه  
وحياته .. ونفذت قطرات من الحسن المنبث ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه .  
فانتعش وانتشى بخمر إلهية . ولكن طرقت مخيلته خلصة صورة من النور  
والبهاء ، فاقشعر بدنه ، وأغمض جفنيه كأنما يفر منها فرارا ، وهمس لنفسه  
بامتعاض : « يا إلهى .. إني أذكرها أكثر مما ينبغى .. وما ينبغى لى أن أذكرها  
بتاتا .. » .

وجاء يوم العيد ، فلبث إسفينيس في السفينة نهار اليوم ؛ وعند المساء ليس أجمل ما عنده من الثياب ، ورجل جمته ومس طيبا ، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقا من العاج . وهودجا مسدل الستائر ، وساروا في طريق القصر . وكانت طيبة ساهرة تضحج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغاني ، وينير القمر منها سبلا اكتظت بجماعات الجنود السكارى المنشدين ، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعوى يتقدمها الخدم حاملين المشاعل ، فتولت الشاب كآبة ثقيلة ، وقال لنفسه محزوننا : « قضى على أن أشارك القوم عيدهم الذى يحبون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكنترع » . وصوب نحو الجنود المتهاوتين نظرة مغضبة ، وذكر قول الحكيم قاقمنا : « الجنود إذا تعودوا الشراب ، وهنت سواعدهم وعافوا القتال » .

ثم تابع تيار السائرين حتى شارف ميدان القصر ، ولاحت لعينيه أسواره ونوافذه نورا فوق نور ، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف ، ونسمت على رأسه المحموم ريح عبقرة عاطرة من ذكريات الصبا ، وجدت قلبه حزينا ونفسه والهة . ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا . واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزر . فنظر فيه بإمعان ، ثم نادى أحد الحراس وأمره أن يقود التاجر وقافلته إلى مكان الانتظار بالحديقة . فتبعه الشاب وعرج وراءه إلى أحد ممرات الغناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعويين والحجاب والحراس . وكان إسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى ، وكأثما فارق أمس آخر مرة . وحين بلغوا مر الأعمدة الكبير المؤدى إلى الحديقة ، اشتد وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر ، وذكر كيف كان

يلعب في هذا الممر مع نيفرتارى ، فيشد على عينيه حتى تخفى نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة ، ثم يحل العصابة ويجد في البحث عنها حتى يظفر بها . وخال في اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين ، ويسمع رجوع ضحكها الحلوة . وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد ، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتى الآن ؟ .. وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضى الجميل ، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه .. فبلغوا الحديقة ، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشاب :

— انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول .

وكانت الحديقة مضاعة بالمصاييح الوهاجة ، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان وربا الزهور ، فبحث عيناه عن الموضع الذى كان يقوم فيه تمثال سيكنترع عند نهاية الممر المعشب الذى يشق الحديقة نصفين ، فوجد مكانه تمثالا جديدا لا روح فيه ؛ يمثل شخصا ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين ، فلم يشك في أنه أمام أبو نيس ملك الرعاة . فأدام إليه النظر شررا ، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق ، وكان كل شيء من القصر والحديقة كعهده به . ولاحت لعينيه الحجرة الصيفية على هضبة عالية ، منحو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة ، فذكر أيامها السعيدة ، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعا في فصل الصيف والربيع ، فينهمك جده وأبوه في لعب الشطرنج ، وتجلس نيفرتارى بين الملكة ستكىموس وجدتها الملكة أحوتبى ، أما هو فيقعده في حجر توتيشيرى ، ثم تمضى الساعات وهم في شغل عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الاشعار وأكل الفاكهة الناضجة . جلس إسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة ، فلم يتململ ولم يجزع ، حتى جاءه الرسول وسأله :

— هل أنت مستعد ؟ ..

فقام واقفا وهو يقول :

— على تمام الاستعداد يا سيدى .

فقال وهو يهيم بالعودة :

— اتبعنى .

فتبعه ورجاله على الأثر ، وارتقوا أدراج السلم ، وقطعوا الرواق الفرعونى حتى شارفوا باب البهو الملكى ، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول ، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية ، ووقع الأقدام الراقصة ، وسجع الموسيقى العنيف ، وشاهد زرافات السقا يحملون الأباريق والأقداح والأزهار ، فأدرك أن القوم لا يتحرجون فى لهوهم ولا يعتدلون فى أعيادهم ، وأن الملك يفهم من الوقار والتأدب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشية الأولى . ثم نادى باسمه أحد العبيد ، وتقدم بخطى مثتدة ، ورأى وسط البهو خاليا ، والقوم جلوسا حوله فى ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون إليه باهتمام ، فدخله شىء من الارتباك ، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هداياه لتعظم مآثره فى عين الملك ، واستبشر بذلك خيرا . ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف ، ودنا وحده من العرش وحنى هامته لإجلالا ، وقال بصوت الخضوع والعبودية : — مولائى الرب المعبود ، سيد النيل ، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين .

فقال له الملك بصوت جهورى قوى النبرات :

— إنى أمنحك السلام أيها العبد .

واعتمدت قامة إسفينيس ، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المترعب على عرش آبائه وأجداده ، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك . ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنه غل . وكانت الملكة تجلس إلى يمينه ، والأميرة أمنيريس إلى شماله ، وقد لحظها الشاب فرآها فى لباسها الملكى كالكوكب المتألق ، وكانت تنظر إليه فى

هدوء وكبرياء ..

وألقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلاً بصوته الغليظ :

— وحق الرب إن هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء ..

فأخنى إسفينيس رأسه وقال :

— شاء الرب أن يجعله لمولى من موالى فرعون .

فقهقه الملك ضاحكاً وقال :

— أراك تحسن القول ، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا .

وهي حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القوى ، وحسن البيان للعبد الضعيف . ولكن لا عليك من هذا فقد قال لى صديقنا خنزرك أنك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة .. أرنا هديتك .

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانباً ، ثم أشار إلى رجاله فتقدم اثنان منهم بالصندوق العاجى ووضعاه أمام العرش ، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجاً فرعونياً مزدوجاً من الذهب الخالص مرصعاً بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان ، ورفع بين يديه فخطف الأبصار ، وانبهر له القوم جميعاً وضجوا بالدهشة والاستحسان . وأما أبو فيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين ، وخلع تاجه دون شعور منه ، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضع على رأسه الأصلع ، فبدى صورة جديدة من الجلال . واغتنط الملك ولاح فى وجهه الرضا ، فقال للشاب :

— أيها التاجر ، إن هديتك حازت القبول .

فانحنى إسفينيس لإجلالا ، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج ، ورئى الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين . وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة فى نفوس القوم جميعاً ، فقام أكثرهم واقفين ، وأشرأت الأعناق ، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيوا مولاكم فرعون ، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفواً ، ثم اقتربوا من العرش فى خطى ثابتة

وئيدة ، وسجدوا بين يدي فرعون ثلاثا ، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شيء . وهتف الملك قائلا :

— أيها التاجر ، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات ؟ .

— هي أناس يا مولاي تعيش قبائلها في أقاصى النوبة الجنوبية ، ولا يصدقون أن العالم يشتمل على أقوام سواهم . فإذا رأوا واحدا منا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجبين . وقد ريت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم ، وسيجدهم مولاي مثالا للطاعة والعبودية ، ونوعا من التسلية والتلهية .

فهر الملك رأسه الكبير ، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال :

— جهل من يدعى العلم كله ، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا ، وإني أمتحك رضى ..

وحنى إسفينيس هامته ، ثم ارتد بظهره راجعا . وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما ، فقبض على ذراعه . والتفت إسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة ، فرأى رجلا في الثياب العسكرية الفخمة ، جميل العشون غليظ الشاربين منتفخ الأوداج . دل احتقان الدم بوجهه ويريق الجنون في نظرة عينه على شدة سكره ، وقد حيا مولاه وقال :

— إنه ليسر مولاي من غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل في الحفلات القومية ، كما تقضى به تقاليدنا المقدسة . وإني أدخر لذات مولاي المقدسة مبارزة دموية تسر الناظرين .

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفثيه الغليظتين :

— ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفض عن النفوس ما رآن عليها من سأم ، ولكن من السعيد الذى شرفته بعداوتك أيها القائد رخ ؟  
فأشار القائد التمل إلى إسفينيس وقال :

— هذا غريمي يا مولاي .

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء ، وسأله الملك :

— كيف استجلب غضبك هذا التاجر التوى ؟  
— أنقذ امرأة فلاحه — تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصى — من العقاب ، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلا منها .  
فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة ، وسأل القائد :  
— ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحا ؟

— أراه يا مولاي متين البنيان مفتول العضلات ، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإنى أغضى عن وضاعة جنسه ، مرضاة لمولاي ومشاركة فى سرور العيد .  
ولكن الحاكم خنزير لم يرض عن المبارزة ، وقد رمق شقيقه القاضى ستموت بنظرة لوم ، لأنه أدرك أنه هو الذى دل القائد على إسفينيس دون تقدير منه للموقف ، وأشفق من أن يضيع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة ، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم :

— لا يجوز أن تخدش أو سمتك بمنازلة تاجر فلاح أيها القائد .  
فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله :

— إذا كان من العيب أن أقاتل فلاحا ، فمن العار أن أترك عبدا يتحدانى دون أن أنزل به العقاب الذى يستحقه .. ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه ، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه ..

وظن من سمع قول القائد أنه حق وعدل ، وتمنوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتموا سرورهم بالعيد . وكان إسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجا ، وكان يشعر بتلهف القوم على استماع كلمته ، ويحس نظرة التحدى والاحتقار التى يصوبها نحوه القائد الشمل العنيد ، فيغلى الدم فى عروقه . ثم يذكر نصائح توتيشيرى ولاتو ، وكيف أن قتله هذا القائد الفظ قد يضيع من يديه الثمرة الدانية القطر ، ويفوت على أسرته الفرصة السانحة ، فيبرد دمه وتخذله عزيمته . رباه .. لا يحيد عن النكوص ، ولا يحيص عن الحرب ، سيتهكم به القائد ، وترمقه الأعين بالاحتقار ، ويفارق المكان منكس الذقن



كسير الفؤاد ، ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :

— لقد تحديتنى أيها الفلاح ، فهل تستطيع مواجهتى ؟

فسكت إسفينيس شاعرا بانهايار ونخاذل ، وسمع صوتا يقول : « دعوا الشاب إنه لا يعرف القتال » . وقال صوت آخر : « دعوا الشاب فإن الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه .. » فدخله الحق ، وأحس بدا توضع على كتفه وصوتا يقول له : « لست فارسا ولا عار عليك إذا اعتذرت » . فنظر فرأى خنزير . فشعر بقشعريرة تسرى فى أعضائه من لمس اليد التى فتكت بجده . ولاحظ منه نظرة فى تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمريدس تنظر نحوه باهتمام ، فغلبه الغضب وفقد وعيه ، فقال بصوت مسموع :

— إني أشكر القائد على نزوله لمبارزتي ، وأقبل اليد التى يمدّها لى .

وسرى الفرح فى النفوس ، وضحك الملك وشرب كأسا أخرى ، وتطلعت الرؤوس من كل حذب وصوب للغريمين . وبدأ الارتياح على وجه القائد وأبتسم ابتسامة التشفى والانتقام ، ثم سأل إسفينيس :

— هل تضارب بالسيف ؟

فحنى رأسه أن نعم ، فأعطاه سيفا . ثم خلع إسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القوى يجذب الأبصار برشاقتة واعتدال قامته وجمال وجهه . وأعطى ترسا ، فقبض على السيف يمينه ، ووضع الترس على يسراه ، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التى أغلقت عليها أبواب المعابد .. وأذن الملك بالقتال ، فشهر كل منهما سيفه . وبدأ القائد الغاضب المهجوم فسدّد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنّها القاضية ، ولكن الشاب تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت فى الهواء ، ولم يمهله القائد فوجه إلى رأسه ضربة أشد من الأولى بسرعة البرق ، فتلقاها الشاب بترسه بحركة خاطفة ، فتعلّت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعا ، وأدرك القائد أنه يقاتل رجلا يجيد الطعان ، فأخذ حذره ، وعاود القتال متبعا خطة جديدة ، فتصاولا ، واشتبكا وانفصلا ، وكرا وفرا ،

القائد فى غضب وعنف ، والشاب فى هدوء عجيب . وكان يصد هجمات عدوه بسهولة ويسر وثقة ، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه احتياجا وجنونا . وأدرك الجميع أن إسفينيس يكفى بالدفاع ولا يكاد يهجم إلا إذا أراد بهجومه إفساد خطة أو تقويت ضربة ، فتجلى فنه ، وبرع على خصمه فى الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذة القتال فوارق الأجناس . فجن جنون رخ . ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا يبنى ولا يتوانى ، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة ، فصد بترسه ما صد ، وتغادى بفنه ما تغادى منه ، ولبت سليما مطمئنا ذا ثقة لا حد لها ، لا يغضب ولا يؤخذ ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولى على القائد الحائق ، وشعر بدقة موقعه وشدة حرجه ، وحدثه اليأس على المغامرة ، فرفع ذراعه بالسيف ، وجمع كل ما أعطى من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام ، وكان مطمئنا إلى خطة عدوه المقصورة على الدفاع . فما هو إلا أن وجهه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كبفه ، وارتجفت يده ، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدا ، فسقط قريبا من عرش فرعون . ولبت رخ أغزل والدم يقطر من يده ، لا يكف عن حنقه . فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه ، ثم صاح به القائد :

— لماذا تبطئ فى الإجهاز على أيها الفلاح ؟

فقال إسفينيس بهدوء :

— ليس لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك ..

فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية ، ثم دار على عقبيه وبرز البهو ، وعلت ضحكة الملك طويلا حتى اضطرب لها جسمه ، ثم أشار إلى إسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه إلى أحد الحجاب ، واقترب من العرش وانحنى للملك ، فقال له :

— إن قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك .. كيف تعلمت القتال ؟

— أيها الملك المعبود ، في بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه ..

فقال الملك :

— يا لها من بلاد .. وقد كنا مقاتلين أشداء رجالا ونساء حين كنا نجوب أطراف الصحراء الشمالية الباردة ، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا في ظلال الترف والنعيم ، وشربنا بدل الماء الخمر ، طاب لنا السلام ، ورأيت واحدا من قواد جيشي ينهزم في قتاله مع تاجر من الفلاحين ..

وكان الملك يتكلم متلهل الوجه ضاحك الفم ، فدنا من عرشه الحاكم خنزروا نحنى له تحية وقال :

— مولاي هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهمز فرعون رأسه التمل وقال :

— صدقت يا خنزور ، كان القتال عادلا شريفا ، وإني أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

— مولاي .. إن هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدي للعرش أجل الخدمات ، بأن يحمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر . فنظر الملك إلى الحاكم مليا . وذكر التاج الذى يتوج رأسه ، فقال بلا تردد : — قد أذنأ له في ذلك .

فانحنى خنزور شاكرا ، وسجد إسفينيس بين يدي فرعون ، ومد يده فلم حاشية ثوبه المللكى . ثم وقف في خشوع وهو يقاوم رغبة في النظر إلى شمال العرش ، ورجع القهقري حتى غيبه باب البهو الكبير . وكان مسرورا مبتهجا ، ولكنه كان يسائل نفسه : « ترى ماذا يقول لاتو إذا علم بقصة المباراة ؟ » . وبلغ إسفينيس والعييد السفينة بعد منتصف الليل ، فوجدوا لاتو ساهرا يترقب ، فأقبل على الشاب قلقا متشوقا إلى سماع أخباره ، فقص عليه إسفينيس ما صادفه في القصر من النجاح والمتاعب ، فقال لاتو :

( كفاح طيبة )

— لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجاح ، ولكنى أخون واجبى إذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيرا باستسلامك للغضب والكبرياء ، وما كان ينبغى لك أن تعرض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب . أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك ؟ .. أو ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك ؟ .. ينبغى أن تذكر دائما أننا هنا عبيد وهم سادة ، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه ، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم ، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذى وجه إلى جدك العظيم وإلى مصر جميعا الضربة القاضية . افعل هذا من أجل مصر ، ومن أجل من تركناهم وراءنا فى نباتنا يخشون ويرجون . ولم يتالك الرجل فأجهش فى البكاء ، ثم مضى إلى مخدعه فصلب صلاة حارة ..

وفى صباح اليوم التالى قصدوا إلى كوخ السيدة إيانا كما وعدا أصحابهما من قبل ، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحسن وبعض الأصدقاء ، بينهم سنبل وهام وديب وكوم ، وكانوا جميعا قلقين متلهفين على سماع الأخبار ، فقال لهما هام : — إن قلوبنا قلقة يعذبها الخوف ويلهبها الأمل . وقد تركنا وراءنا فى الأكواخ القرية المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية . فابتسم إسفينيس ابتسامة حلوة ، وقال :

— أبشروا يا أصدقاء ، لقد أذن لنا الملك فى الاتجار بين مصر والنوبة . فلاح البشر فى وجوههم ، وتألفت أعينهم بنور الرجاء وقال لاثو بحزم : — جاء وقت العمل فلا تضيعوا الوقت هباء ، واعلموا أن الطريق طويل فينبغى أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال . لا تتوانوا عن إغراء العامة بالاشتراك فى رحلتنا ، ومنوهم بالريح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة ، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود . وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهذنا برجال طيبة ومصر جميعا .. هلموا جميعا فاحزموا أمتعتكم ..

وانتشرت فى الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم فى جوانبها الحماسة

والإيمان ، وهرع الرجال المتخفون في ثياب الصيادين إلى السفن ، وشغلوا كل مكان يمكن أن يشغل من أسطحها وبطونها . ثم واجهت إسفينيس مشكلة عسيرة وهي أرجال النساء والأطفال ، وشغلن أماكن أحق بها الرجال والشبان ، أو تركهن وحدهن على ما في هذا من إيلاهم ولنوين . ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقرين ، وطال الأخذ والرد ، حتى انبرى أحس بن إيانا فقال :

— أيها السيد إسفينيس ، نحن في حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال ، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجنيد هذا الجيش العظيم ، وما يضرهن أن يمكن في طيبة حتى نعود إليهن عودة الظافرين . وإنه لأدعى إلى حماستنا أن نقاتل وفي البلاد نساؤنا ، من أن نخلفنهم وراءنا في النوبة ، وإذا كان في هذا الرأي ألم لنا ، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية في سبيل غرضنا الأسمى .  
وبلغ التأثير بإيانا مبلغا عظيما فقالت :

— نعم الرأي الحكيم ... إن مكاننا هنا ، وسنقاسم أهل طيبة حظهم : إن موت فموت ، وإن حياة فحياة ...

ولم يتردد أحد عن القبول ، ورضى النساء بفراق الأزواج والأبناء ، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال ..

وكان إسفينيس لا يذوق الراحة في تلك الأيام القلائل الحافلة بمجالات الأعمال والتفديات الصامتة ، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين . وكان إلى هذا يعمل نفسه بالآمال ، ويذكر الحاضر والمستقبل ، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة في الانتقام . وكان إلى هذا وذاك يكتم أشواقا تضطرم في فؤاده . ويغالب لواعج الوجدان التي باتت تأكل صدره وكبدته ، ويضنى بما يعتري في نفسه من أسباب البغضاء وقوى المحبة .. فلشد ما جاهد وتحمل في الأيام القلائل ، ولشد ما تجلد وتصبر ...

وأذن أخيراً حاكم الجنوب لإسفينيس بالرحيل ، وأعطاه جوازاً لعبور الحدود في أى وقت يشاء . فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب ، وكان إسفينيس ولاتو وأحمس بن إباناً يأخذون مجالسهم في مقصورة السفينة الأولى وفي قلوبهم شوق وحنين ، وفي عيني أحمس دموع هي آخر ما ودع به أمه . وكان إسفينيس يغرق في أحلامه ، فذكر طيبة وأهل طيبة ، طيبة أعظم مدن الأرض ، المدينة ذات الأبواب المائة ، والمسلات التي تناطح الجوزاء ، والمعابد الهائلة والقصور الشم ، والسبل الطويلة والميادين العظيمة ، والأسواق التي لا تبدأ ولا تسكن أثناء الليل وأطراف النهار ، طيبة المجيدة ، طيبة آمون الذى قضى أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر ، طيبة التي حكمها الهمج أخيراً وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهر يمرغ وجوههم في ثرى من كان بالأمس لهم عبداً . وتهد الشاب من قلب مكلم ، ثم ذكر الرجال الجاثمين في بطون سفنه يحدهم أمل واحد ، ويدفعهم إلى الأحوال حب لمصر مكين توارثوه جيلاً بعد جيل . كم يعانون من ألم الفراق لمن خلفوا وراءهم بين أيدي أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال ، وكأنهم جميعاً هذا الفتى الباسل أحمس الذى يكظم أشواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوة .. ثم طافت بذهنه في حشد الذكريات صورة ذات بهاء ، فأطرق ليخفى عينيه عن لاتو الثاقب البصر ، ولو علم الرجل فيما يفكر لغضب مرة أخرى ، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بآبنة الشيطان كإدعائها أول مرة . وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها ، وكيف لا تنفك تنزع إليها . وتساءل متحيراً : هل يمكن أن يجتمع الحب والكراهية لشيء واحد ؟ . ولاحت في عينيه نظرة حزينة ، وقال

نفسه : مهما يكن أمرى فلن تقع عيناى عليها مرة أخرى فلا داعى للقلق ، وهل وجد فى الدنيا شىء يعز على النسيان ؟ . وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلت على القلق :

— انظر إلى الشمال ... أرى قافلة قادمة على عجل ...

فنظر الشابان إلى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشق عباب الماء بسرعة ، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاءها فعين إسفينيس رجلا يقف فى مقدمة القافلة فعرفه ، وقال بقلق :

— هذا القائد رخ ...

فامتقع وجه لاتو ، وقال وقد تزايد اضطرابه :

— ترى هل يغى اللحاق بنا ؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه ، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر ، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق :

— هل يجىء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا ؟

وأدرك إسفينيس أنه لم يخلص بعد من عواقب خطئه ، وأن الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت بر الأمان والسلامة . وصوب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتى جاوزت بعض سفن قافلته . وإذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جنود الحرس ولم تجىء لخبر بلا شك . ثم اتجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها ، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية ، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ :

— قف وألق مراسيك .

وغيرت السفن اتجاهها لتحاصر القافلة ، فأمر إسفينيس بحارته أن يكفوا عن التجديف وأن يلقوا المراسى ، فأذعنوا لما أمروا ، وقد تولاهم الخوف رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكي السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربية . واشتد القلق بإسفينيس ، وأشفق من أن ينكل القائد الحقود بقافلته فيعد أمل قومه

جميعا ، وقال لرفيقه :

— إذا كان هذا الرجل يريد رأسى فلا بأس أن أكون أول صرعى الكفاح الجديد ، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلا أن تستأنف المسير ، دون أن تتمكن للغضب من نفسك فتقضى على آمالنا جميعا ...

فشد الشيخ على يده وقد اسودت الدنيا في عينيه ، واستدرك إسفينيس قائلا بحزم :

— إني أوصيك يا لاتو بما أوصيتنى به بالأمس من تجنب الغضب غير الحكيم . دعنى أذفع ثمن خطي . ولكن تعد غدا إلى أبى فتعزيه عن موتى وتهته بمن حملت إليه من جنود مصر ، لحير من أن تعودى إليه وقد خسرنا أملنا إلى الأبد ...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلا :

— اخرج إلى وسط السفينة أيها الفلاح .

فشد الشاب على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين ، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته :

— لقد أطحت بسيفى أيها العبد المفتون وأنا ثمل أترنح وهأنذا أنتظرك وقلبي ثابت وساعدى غير مرتعش .

فأدرك أن القائد ذو طبيعته انتقامية ، وأنه يريد أن ينازله ليغسل العار الذى لحقه منه ، فقال له بهدوء وقد دخله شىء من الطمأنينة على قافلته :

— هل ترغب فى أن تعيد الكرة أيها القائد ؟

فقال بحة :

— نعم أيها العبد ، وسأقتلك بيدي هذه المرة شر قتلة .

فسأله إسفينيس فى هدوء :

— وأنا لا أخشى نزالك ، ولكن هل تعد بالآتمس قافلتى بسوء مهما تكن

عاقبة المباراة ؟ ...

فقال القائد باحتقار :



— سأترك القافلة احتراماً لمشیئة مولای فتسير دون جثثك .

— وأین تريد القتال ؟

— علی ظهر سفیتی . .

فلم ینس الشاب بكلمة ، وقفز إلى قارب وجدف بساعديه القویین حتی بلغ سفينة القائد ، ثم ارتقى السلم إلى سطحها ووقف أمام عدوه وجها لوجه . فألقى علیه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو علی وجهه الجمیل من الهدوء والثبات والاستهانة ، وأشار إلى جندي من الجنود فأعطى الشاب سیفا وترسا ، وقال له القائد وهو يتحفز للقتال :

— لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك . ثم هجم علیه كالوحش الضاری فاشتبكا فی قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين بالسلاح ؛ وعلی مقدمة السفينة الأخرى وقف لاثو وأحمس يشاهدان المعركة بیصر زائف ... وتتابع ضربات القائد فصدھا إسفینیس بمهارته الفائقة . ثم وجه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت علی ترسه فصكته بعنف بدا علیه أثره ، فانتز الشاب الفرصة وبدأ هجومه علیه بشدة وحذق ، فاضطر القائد إلى التقهقر ، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التي یسددها له خصمه المقتدر الذي لم یبسی له فرصة یستريح فیها أو يعاود الهجوم ، وتبدى الخنق علی وجه الرجل وصر بنواجذه بغضب جنونی ، فارتمى علی خصمه یائسا . ولكن الشاب تقادی منه ووجه إليه ضربة رشیقة أصابت عنقه ، فتخاذلت یداه ، وكف عن القتال ، وترخ كالثلمل ثم سقط علی وجهه يتخبط فی دمه . فصرخ الجنود صرخة غاضبة ، وسلوا سیوفهم الطويلة وتحفزوا للاتقضااض علی الشاب لدى أول إشارة تصدر من الضابط الذي علی رعوسهم . فأیقن إسفینیس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولا سیما أن کثیرین كانوا یسددون نحو قلبه قسیم ، فلبث یتربق مذاق الموت مستسلما وعیناه لا تفارقان القائد الطریح أمامه . وفی تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتا قریبا یصیح بغضب :

.. — أيها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم ..  
وخيل إليه أنه يعرف الصوت فأنخلع قلبه في صدره ، والتفت إلى مصدر  
الصوت فرأى سفينة فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائلها تنكس  
الأميرة أمريدس ، تلوح على وجهها الجميل آى الغضب .

\* \* \*

وأغمد الجنود سيوفهم وأدوا التحية ، فحنى إسفينيس هامته إجلالا قبل أن  
يفيق من دهشته ويصدق حقا أنه نجا من الموت ، وسألت الأميرة الضابط قائلة :  
— هل قتل القائد رخ ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحص عنقه ، ثم وقف  
قائلا :

— أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السمو ، ولكن به نفس يتردد .  
فسأله ببرود :

— وهل كان القتال عادلا ؟

.. — نعم يا صاحبة السمو .

فقالت الأميرة بغضب :

— كيف إذن سولت لكم نفوسكم المهم بقتل رجل أعطاه الملك الأمان ؟ ..  
ولاح الارتباك في وجه الضابط ولم ينبس بكلمة ، فقالت الأميرة بلهجة  
آمرة :

— أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطباء القصر ..

وأذعن الضابط لما أمر فترك إسفينيس حرا ، فهبط الشاب إلى قاربه ووجهه  
إلى السفينة الفرعونية ، وهو يقول لنفسه بارتياح : « كيف جاءت الأميرة في  
الوقت المناسب ؟ .. » . ثم صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس ،  
وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين ، وطلب  
من جارية أن تستأذن له في الدخول .. فغابت في الداخل لحظة ثم جاءت بإذن ،

فدخل خافق القلب ، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها في رخاوة إلى نمرقة محشوة بالقز ووجهها يشع نورا سنيا ، فانحنى بين يديها في إجلال صادق ، ورأى وهو يعتدل واقفا عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها ، فتورد وجهه . ولم يغب عنها شيء مما ينطق به وجهه وعيناها ، فقالت بصوت رخم عذب وهي تشير بأصبعها إلى العقد :

— أجيئت تسألني ثمن هذا العقد ؟

فاطمأن الشاب إلى لهجتها العذبة ، وسر بدعابتها وقال بإخلاص :

— بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصا على ما أوليتني من نعمة الحياة ، التي سأظل مدينا لك بها ما حييت ..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت في ثغرها كومضة البرق ، وقالت :

— نعم أنت مدين لي بحياتك . ولا تعجب إذ أقول هذا فلست ممن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع ، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك فلحققت به في السفينة وشهدت جانباً من قتالكما ، ثم تدخلت في الوقت المناسب لإنقاذ حياتك ..

فوقع هذا المن من قلبه موضع الماء من الصادى ، ووجد في نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها في إنقاذ حياته ، ما جعله ينتشى بخمر السعادة ، وسألها :

— هل أطمع في أن تصارحنى مولاتي ، بما أعهدده فيها من كراهية للرياء والتصنع ، بالسبب الذى جعلها تجشم نفسها تعب إنقاذ حياتى ؟ ..

فقال في استرسال وكأنها تسخر مما ظن أنه أخرجها به :

— أن أجعلك تدين لي بحياتك ..

— هو دين يسعدنى ولا يفقرنى ..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى أحس أنه على وشك أن يترنخ ويقع على قدميها ، وقالت :

— يا لك من مرء كذوب .. أهذا كلام يقوله مدين لدائته وهو يوليه ظهره

لسفرة لا رجعة منها ؟ ..

— كلا يا مولاتي بل لسفرة لها معاد قريب ..

فقالت وكأنها تحدث نفسها :

— إني أسائل نفسي عما عسى أن يكون انتفاعي بهذا الدين ؟ ..

ووجب قلبه ، ونظر إلى زرقه عينها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من الحياة التي وهبته إياها ، وأحس أن ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب إليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا ، ففقد له وهوى على قدميهما ..

ثم سأله وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبي على جبينها الأغر وأذنبها :

— هل تغيب طويلا ؟

فقال وهو يتهد :

— شهرا يا مولاتي .

فلاحت في عينها نظرة حزن وقالت :

— ولكنك ترمع العودة .. أليس كذلك ؟

— نعم يا مولاتي وحق حياتي التي هي لك .. وحق هذه المقصورة

المقدسة ..

فمدت إليه يدها وقالت :

— إلى الملتقى ..

فلثم يدها وقال :

— إلى الملتقى ..

\*\*\*

واستقبله لاثو بذراعين مفتوحين وعيتين دامتين وضمه إلى صدره ، وتعلق أحسن بعنقه ولثم جبينه ، ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان ، ووقفوا يودعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهي توغل في الشمال وهم يوغلون في الجنوب ، حتى ارتدت عنها الأبصار وهي كليلة .

وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأن شيئا لم يقع .  
وجعل إسفينيس يعلل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوى الأجسام  
النحاسية ، ولكن قلبه كان ينزع به إلى المقصورة ، هل يداخل لاثو شك ؟ .. إن  
لاثو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كل شيء إلا حب مصر ، وهو نفسه لا يخلو من  
هم يساوره ولا يدري أخطأ أم أصاب ، ولكن من من بنى الإنسان يستطيع أن يبلغ  
هدفه كما قدر له من قبل دون حساب لما يجد من الأمور ؟ .. فلرب قاصد إلى جبل  
يجد نفسه متحدرا في واد عميق ، ولرب مزعم صيد أراش له نبلا يلقي الصيد  
منقضا عليه ومطارده .

وأجتازت القافلة حدود مصر في سلام ، فصلى رجالها للرب آمون صلاة جامعة حارة ، وشكروا ربهم على ما هيا لهم من سبل النجاة ، ودعوه أن يدنى إليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كل سوء . وصعدت القافلة في النهر أياها وليا إلى حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام ، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى أرض الجزيرة ، ووقف بينهم وإسفينيس إلى يمينه ثم قال لهم :

— أيها الإخوان ، دعوني أصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم ؛ ألا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكنترع إليكم ، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن في نباتا ...

فلاحت الدهشة في وجوه الرجال ، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرع :

— أحق أيها السيد لاتو أن أسرنا الفرعونية في نباتا ؟

فحنى رأسه بالإيجاب مبتسما ، فسأله آخرون :

— هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيرى ؟

— نعم .. وستبارككم في الغد القريب .

— ومليكننا كاموس بن سيكنترع ؟

— نعم وسوف ترونه بأعينكم ، وتسمعون إليه بأذانكم .

— وولى العهد أحس ؟ ..

فابتسم لاتو وأشار إلى إسفينيس ، ثم حنى هامته قائلا :

— إليكم أيها السادة ولى عهد المملكة المصرية ، حضرة صاحب السمو

الفرعوى الأمير أحس .

وتصايح كثيرون :

— التاجر إسفينيس ولى عهد مصر الأمير أحمس ؟..

أما أحمس إباناً فقد سجد بين يدى الأمير وهو يبكى ، فسجد الجميع وراءه ، منهم من يبكى ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه ..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعا ، يود رجالها لو تطير بهم طيرانا إلى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمههم المقدسة توتيشيرى .. ومضت أيام وليالى ، ثم لاحت فى الأفق نباتا بأكوأخها الساذجة ومبانيها المتواضعة ، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة إلى مرفئها . وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر الحاكم ، وتجمع حشد النوبيين على الشاطئ ليشاهدوا السفن والقادمين عليها . ونزل المصريون إلى الشاطئ يتقدمهم الأمير أحمس والحاجب حور ، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم ، فحيا الأمير والقادمين معه ، وأبلغهم تحية الملك وأسرته ، وأخبرهم أن جلالته ينتظرهم فى القصر . وهتف الرجال للملك طويلا ، ثم ساروا فى جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين .. وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة فى فناء قصر الحاكم ، وقد غيرت تلك السنوات العشر منها ما غيرت ، فترك الجدد والصرامة والحزن فى نفوسهم جميعا آثارا لا تمحى أبد الدهر ، وكان أكبرهم تأثرا بالدهر ، الملكتان توتيشيرى وأحوتى ، فجف عود الأم المقدسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلا ، وحفرت الآلام فى جبينها الوضاء تجعداتا ، ولم يبق من توتيشيرى القديمة سوى بريق عينها ونظراتها الدالة على الحكمة والصبر ، وأما أحوتى فقد جلل رأسها المشيب ، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم .

ولما رأى الشعب مليكه ، سجد له ، ثم تقدم أحمس من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكىموس وجدته أحوتى وتوتيشيرى ، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتارى ، ثم وجه خطبته إلى الملك قائلا :

— مولاي لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح ، فإلى جلالتكم أقدم أول كتاب جيش الخلاص ..

فلاح السرور في وجه الملك ، وقام واقفا ورفع الصولجان تحية لقومه ، فهتفوا له طويلا ، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلا رجلا ، ثم قال لهم كاموس :

— حياكم الرب أيها الطبييون الشجعان الذين فرق البغي بيننا وبينهم ، ففضى عليهم أن يساموا الخسف ، كما قضى علينا أن ندق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة . ولكن أراكم رجالا تأبون الضيم وتوثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة في ظل الذل ، كما عهدتكم دائما وكما عهدكم أى من قبل ، فجئتم تصلون جناحي بعد أن تمزق أو كاد ، وتثبتون قلبي وقد أرعشه جفاء الدهر ، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلبا وأعظمنا أملا الأم توتيشيرى في المنام ، وأمرها أن تبعث بابنى أحسن إلى أرض الآباء والأجداد ليأتى بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها ، فبعثت بابنى كما أمر الرب وأتى بكم ، فمرحبا بكم جنود مصر وجنود كاموس ، وسيأتى غدا آخرون ؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى العمل ؛ وليكن شعارنا الكفاح ، وأملنا مصر ، وإيماننا آمون ..

فصاحوا جميعا كرجل واحد : « الكفاح ومصر وآمون .. » ثم قامت توتيشيرى واقفة وتقدمت خطوات متوكة على صولجانها ، ثم قالت للرجال بصوت قوى سليم النبرات :

— يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة ، تقبلوا تحيات أمكم الكبيرة ، ودعوني أقدم لكم هدية صنعتها يدي لكم لنعمل جميعا تحت ظلها .

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجانها ، فاقترب من الرجال وقدم إليهم علما كبيرا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة ، فتلقفته الأيدي بحماسة ، ودعوا لأهمم دعاء حارا وهتفوا لها ولطيبة المجيدة ، فابتسمت توتيشيرى وأضاء وجهها نور بهيج ، وقالت :



— يا أبنائى الأعزاء ، أصارحكم بأنى لم أستسلم إلى اليأس أبدا ، وقد أوصانا  
سيكنترع يوم الوادع بأن نخذر اليأس . وما زلت أدعو الرب أن يمد فى أجلى حتى  
أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا ، ويجلس على عرشها كاموس  
فرعون مصر العليا والسفلى ، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أملى بعد أن ضمت إلى  
سواعدكم الفتية .

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى ، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر  
وكاهن آمون ومعبد الرب ، والحاجب يحياه بما عرف ، ثم قدم الأمير أحمس إلى أبيه  
أحمس إبانا ابن القائد ييسى ، فرحب به الملك وقال له :  
— أرجو أن تكون لى كما كان أبوك لأنى قائدا باسلا ، فعاش لواجهه ومات فى  
سبيله ..

ثم دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، ثم مضوا  
جميعا يفكرون فى الغد القريب والغد البعيد ، وباتت نباتا أول مرة منذ عشرة  
أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل ..

## كفاح أحس

١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية في المهجر حياة دعة وخمول ، ولكنها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد ، ومدارها جميعا قلب توتيشرى الذى لا يعرف اليأس أو الراحة . فطلبت منذ بدء قنومها إلى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصناعات النوبيين والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة ، فبعث الرجل برسله إلى أرقو وأطال وغيرهما من بلاد النوبة ، وجاعوه بالصناعات والعمال . وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال ، وقالت له تشجعه : « ستعتمد يوما إلى الهجوم على العدو الذى اغتصب عرشك وامتلئ بلادك ، فينبغى إذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير ، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أليك » .

وتحولت نباتا فى أثناء السنوات العشر إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بأنواعها جميعا ، وثمرت ثمارها على مر الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد . ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى ، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد راونا موفورا ، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحماسة والأمل الصادق ، فانخرطوا جميعا غداة وصولهم إلى نباتا فى سلك الجندية ، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت إشراف ضباط الحماية المصرية ، فلم تأخذهم فى التدريب هواة ، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس .

كانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير ، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول ، يعاونه ولى العهد أحبس ، وأبى الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة إلا أن يعملن مع العاملين ، فكن يثقفن السهام ويرشنها ، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحريرية ، وكن لا يفتأن يختلطن بالجنود والصناع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجعنهم ويشبن قلوبهم . وما كان أروع منظر الأم توتيشيرى وهى مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماسة والرجاء ، وكان الرجال يرونها فينسبون أنفسهم وينتفضون حماسة وإقبالا ، فتبتسم المرأة استبشارا ، وتقول لمن حولها :

— إن السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا لم تدفعها قلوب أشد صلابة من حديدتها ... انظروا إلى رجال طيبة كيف يعملون ... ؟ ... سوف ينقض الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوى اللحى القذرة والبشرة البيضاء ، فيطير أفقدتهم ...

والحق قد انقلب الرجال بقوة الحماسة والحب والبغضاء وحوشا ضواري .. وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية ، فضاعف لها السفن ، وملأها بالذهب والفضة والأقزام وغريب الحيوان ، وارتأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة ليكونوا عبيدا فى الظاهر وأعدا فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف إذا اشتغل يوما باشتباك معهم ، وقد راقى الفكرة الملك كما راقى الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد ..

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن فى السفر ، وكان الأمير أحبس ينتظر تلك الساعة بقلب أضناه الشوق وعناه الجوى ، فاستأذن فى الرحيل على رأس القافلة ، ولكن الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرض له من الأخطار ، أى أن يجارف بسفره مرة أخرى بغير داع ، فقال له :  
( كفاح طيبة )

— أيها الأمير ، إن واجبك الآن يدعوك إلى البقاء في نباتا ..  
فبغت الأمير بقول أبيه الذى ألقى على الأمل المضطرب فى صدره كما يلقى الماء  
البارد على الجمرة المستعرة ، وقال له برجاء صادق :  
— إن رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبي ..  
فقال الملك :

— ستجد الشفاء التام يوم تدخلها غازيا على رأس جيش الخلاص ...  
فعاود الشاب الرجاء قائلا :

— أئى ، طالما عللت نفسى برؤية طيبة قريبا .  
فقال الملك بحزم :

— لن يطول انتظارنا ، فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .  
وأدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فأشفق من إغضابه إذا  
عاوده الرجاء ، وحتى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحس الألم يقطع قلبه  
ويكتم أنفاسه ، ولكنه تماسك وتجلد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرب الرجال  
والقلب حزين كئيب ، وكان نهاره ينقضى فى العمل الشاق فلم يظفر من يومه  
إلا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادى فى خلوته حلو الذكريات ، ويحوم بخياله حول  
المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية التى شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن  
والطف المهورى ، فيخال أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا : « إلى الملتقى » .  
ثم يتهد من أعماق قلبه ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟ ... إنه الوداع الذى  
لا لقاء بعده .

على أن نباتا فى تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسى الرجل نفسه وهمه ،  
وتقصره على الاشتغال بما هو أجل وأخطر ، وكان الرجال يعملون جادين  
يكافحون بغير انقطاع ، فإذا نسمت عليهم ريح طيبة وهزهم الشوق إلى من  
خلفوهم وراء أسوارها ، تنهدوا حينئذ انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم  
وعزيمة أشد ، ومرت بهم الأيام لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل ، أو أن

في الغد شيئا سوى الأمل ... ثم عادت القافلة برجال جدد يبتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهفين مثلهم : أين ملكنا كاموس ، وأين أمانا توتشيري ، وأين أميرنا أحمس ؟ .. ثم ينضمون إلى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحياه ، ثم مد له يده برسالة وقال :  
— عهد إلى أن أحمل إلى سموك هذه الرسالة ..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشا :

— من مرسلها ؟

ولكن حور لازم الصمت في وجوم ، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه ، وفض الرسالة وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتد وجيب قلبه ، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هي ما يأتي :

أيها التاجر إسفينيس :

يخزننى أن أخبرك بأنى اخترت قزما من أقزامك ليعيش معى فى جناحى الخاص ، وأنى عنيت به وأطعمته ألد الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة ، حتى أنسى بى وأنست به ، ثم افتقدته يوما فلم أجده فأمرت الجوارى أن يبحثن عنه فوجدنه قد هرب إلى أخويه فى الحديقة ، فألمنى غدره وصددت عنه ، فهل لك أن تبحث إلى بقرم جديد يعرف الوفاء ؟ ..

أمريديس

. وأحس أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه ، وأن الأرض تميد تحت قدميه ، ولاحت منه نظرة إلى حور فرآه ينعم النظر كأنه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه .

فتحول عنه وسار فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه هيات أن تدرى بما يمنع من العودة إليها ، وهيات أن يستطيع يوما أن يشها شجوه وعواطفه ، وسترى فيه دائما القزم فاقد الوفاء .

وانطوى على آلامه لا يحس ما يستعر في فؤاده سوى أقرب الألفة إليه :  
نيفرتارى ، وقد تحيرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده ، ونظرة  
الحزن التى تلوح في عينيه الجميلتين كلما أرسل النظر غير قاصد شيئا .  
فقالت له ذات مساء :

— لست كعهدى بك يا أحسن .

فاضطرب لملاحظتها ، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسما :  
— إنه التعب يا حبيبتي ، ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال  
الرواسى ؟ ...

فهزت رأسها ولم تقل شيئا ، وغدا الشاب أشد حذرا ...  
على أن نباتا لم تكن لتترك إنسانا يفرق في حزنه ، لأن العمل قاهر الأحزان وقد  
شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد . فكانت تدرّب الرجال ،  
وتصنع السفن والعجلات والسلاح ، وترسل القوافل محملة بالذهب فتعود  
محملة بالرجال ، ثم تردها فترتد إليها . ومضت الأيام والشهور الطوال إلى أن جاء  
اليوم السعيد المرتقب ، فقصد الملك كاموس إلى جدته توتيشيرى وهو لا يتألك  
من الفرح ، ولثم جبينها وقال بصوت متهدج :  
— أبشرى يا أماه ، لقد تم إعداد جيش الخلاص ...

ودقت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقا ورفع الأسطول مراسيه ، ودعت توتيشيرى إليها الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم :

— هذا يوم من الأيام السعيدة التى طال انتظارى لها ، فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع إليهم أن يفكوا أسرها ، ويحطموا الأغلال التى تغل أعناق مصر جميعا . وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنمحيث أو تموتوا ميتة سيكنترع . وليباركم الرب آمون وليثبت قلوبكم ..

فقبل الرجال يدها النحيلة ، وقال لها الملك كاموس وهو يودعها :  
— سيكون شعارنا جميعا حياة أمنمحيث أو ميتة سيكنترع ، وسيموت من يموت منا أشرف ميتة ، ويحيا من يبقى منا أعز حياة .

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأجرة الفرعونية والحاكم رؤوم تودع الجيش اللجب . ودقت الطبول وعزفت الموسيقى وتحرك الجيش متبعا لنظامه التقليدى . فتقدمته قوة الكشفافة تحمل الأعلام ، وسار الملك كاموس فى طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة ، ثم تقدمت فرقة العجلات تسير صفوفها صفوها لا يحدها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصم الآذان وتسهل جيادها كزفرقة الرياح ، وتليها فرقة القسى الثقيلة بقسيها ودروعها وجعبات السهام ، تتأثرها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد تهيأ الجنود عليه بكامل معداتهم من القسى والرماح والسيوف ...

وتقدمت هذه القوات على أنغام الموسيقى تستعر الحماسة فى قلوبها الفتية

الغاضبة ، ويلقى منظرها الراهب الرعب فى الأفئدة والنفوس ، وتقطع النهار ضاربة فى الأرض وتهجع إذا ما خيم الظلام لا تكل ولا يصيبها الإعياء ، مستعينة على مشاق الطريق وطول الرحلة بعزائم ترحزح الجبال ، ففروا فى سبيلهم بسمنة وبون وابسخليس وفتتريس ونافس ، وما زالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابود آخر بلدان النوبة ، ونسمت على وجوههم ريح مصر الطيبة ، فعسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعناء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال ..

ودبر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا التدبير . وعهد إلى أحس إباننا — وكان أمهر رجال الأسطول كافة — بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر ، باعتباره قافلة مما ألف الحراس اجتيازها للحدود فى العهد الأخير . وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند إسفار الصباح . وكان أحس إباننا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التجار الفضفاضة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله فى سلام ، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكون من سفن قلائل وحامية صغيرة ، فكانت خطته ترمى إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها ، ثم ضرب الحصار حول جزيرة ييجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر ، فيسهل عليه ضرب سيين ولما تأخذ أهبته . وتقدمت القافلة فى خط أفقى ، فلما دنت من شاطئ ييجة الجنوى حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسى ، وخلع أحس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضباط ، وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن ، واقترب الأسطول من السفن الرأسية بسرعة ، وانقض عليها قبل أن يأتيا مدد من البر ، وألقى عليها شباكه ، وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها ، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين ، فى معركة صغيرة فأبادوهم فى زمن يسير . وفى أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم فى السفن ، فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمنا غاليا ،



وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشمالية ، وتنبهت حامية يبيجة إلى الحركة الخاطفة فجرت إلى الشاطئ ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة ، وأن أسطولها الصغير أسير ...

ولم يمض إلا قليل وقت على انتهاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصرى فى الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود ، ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة ، وانضمت إلى أسطول أحمر إيانا ، فصارت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية يبيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيدا من مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

وما هى إلا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرق ، تتبعها الفرق ذات اللجب ، فادرك المحاصرون فى يبيجة أن القادمين غزاة لا قرصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسي ، وزحف الجنود من جميع النواحي نحو الحامية المحاصرة فى الوسط ، وكان جنودها — إلى وقوعهم فى مركز دقيق — قد رأوا تدفق القوات المصرية فى البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم ، وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى . وكان أحمر إيانا على رأس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليه الأعلام المصرية ، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود ..

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم ، وهرعوا نساء ورجالا إلى قصر الحاكم الجديد وتجمعوا أمامه ليروا ما الخبر ، تصطرع فى نفوسهم الآمال والخاوف ، فخرج إليهم أحمر إيانا ، وقد تطلعوا إليه صامتين ، فقال لهم :

— حياكم الرب آمون حامى المصريين وقاهر الرعاة .

فوقعت كلمة آمون من أذانهم موقعا جميلا ساحرا ، وقد حرموا سماعها

عشرة أعوام ، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم :

— هل أتيتم حقا لإنقاذنا ؟

فقال أحس إيانا بصوت متهدج :

— لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا ، ألا ترون هذه القوات

الهابطة ؟ إنها جيش الخلاص ، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد

سيكنترع ، الذى جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه .

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين ، ثم غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له

طويلا ، وجثا كثيرون يصلون للرب آمون المعبود ، وسأل بعض الرجال أحس

إيانا قائلين :

— هل انتهت عبوديتنا حقا ؟ وهل نرد اليوم أحرارا كما كنا من قبل سنوات

عشر ؟.. هل مضى زمن السوط والعصا وتعينرنا بأننا فلاحون ؟..

فاهتاج أحس إيانا غضبا وقال بحنق :

— ثقوا أن عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى إلى غير رجعة ، وأنكم

ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارا فى كنف مليكنا كاموس فرعون مصر

الشرعى ، وسترد إليكم أرضكم ويوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر فى

غيابات السجون .

فشمل الفرح النفوس المعذبة ، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء إلى

آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض ...

وفى رونق الضحى نزل الملك كاموس وولى عهده أحبس والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعا إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسيا ، وخروا سجدا يقبلون الأرض بين يديه ، وتعالى هتافهم لذكر سيكنترع ولتوتيشيرى وللملك وللأمير أحبس ، فحياهم كاموس بيديه ، وتحدث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة ، وشرب وحاشيته وقواده أقداحا مترعة بنبئذ مريوط ، ذهبوا جميعا إلى قصر الحاكم ، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكما على الجزيرة وعهد إليه فى نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية . وفى ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سيين عند الفجر ، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها ..

ونام الجيش مبكرا واستيقظ قبيل الفجر . ثم زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، فشق الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة ، والغضب يتأجج فى الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال . واقتربوا من سيين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول ، وشف الأفق الشرقى عن طلائع الشمس ، وأصدر كاموس أمره إلى قوات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوات من فرقى السقى والرماح ، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة ، وهجمت القوات على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد ، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها ، فوجهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة . تبعتهما قوات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدو مذبحا سالت فيها

الدماء أنهارا . واستطاع الرعاة أن يقاتلوا في بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع الياثس ، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة .. أما الأسطول فلم يلق مقاومة ولم يلتق في طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطئ ، وأنزل قوات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها ، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان ، ثم اخترقت القوات الحقول صوب المدينة ...

وكانت المفاجأة عاملا فاصلا في المعركة قصر مدتها وكثر صرعاها من الرعاة ، فما ارتفعت الشمس في الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتى رثيت جموع الغزاة وهي تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى ، وشوهدت الجثث ملقاة في السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها ، وذاع في أرجاء المدينة والحقول القرية أن كاموس ابن سيكنترع اقتحم سجين بجيش جرار واستولى عليها ، فاستعرت على الأثر ثورة دموية ، وهاجم الأهليون بيوت الرعاة وقتلوهم في مخادعهم ، ومثلوا بهم وضربوهم بالسياط ضربا مبرحا ، فهام كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريون حين زحف أبو فيس على الجنوب بعجلاته ورجاله ... ثم هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام المصرية وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها ، فهب الأهليون يستقبلونه ، وكان يوما مجيدا ...

ونقل الضباط للملك أن عددا غفيرا من الشبان — ومنهم من كانوا جنودا في الجيش القديم — يقبلون على التطوع في الجيش بحماسة فائقة ، فسر كاموس وولى على المدينة أحد رجاله المدعو شاو ، وأمره بأن ينظم المتطوعين ويديرهم لينضموا إلى الجيش جنودا متأهبين ، وأحصى القواد للملك ما غنموه من العجلات والجياد ، فإذا هو شيء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدموا دون توان حتى لا يدعوا للعدو مهلة للتأهب وحشد الجيوش ، وقال :

— سنخوض أول معركة حقيقية في أمبوس ..  
فقال كاموس :

— نعم يا حور ، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارين ، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن ، وسنلقى عدونا مستعدا ، وربما استطاع أبو فيس أن يلقانا بقواته الغاشمة في هيراكونوليس .. فهيا إلى المسير ...

وزحفت القوات المصرية — البرية واليلية — صوب الشمال في طريق أمبوس ، ودخلت في قرى كثيرة فلم تلق مقاومة البتة ، ولم تعثر برجل واحد من الرعاة ، وعلم الملك أن رجال العدو يحملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارين إلى أمبوس ، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل . وجد الجيش في المسير حتى شارف أمبوس ، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرر أن العدو معسكر جنوب المدينة متأهبا للقتال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس ، فعلم كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك في أن يعرف عدد جنوده عدوه ، ولكن تعذر ذلك على جنود الكشف لأن العدو كان يعسكر في سهل منبسط لا تسهل مراقبته ، فقال قائد شاب يدعى محب :

— لا أظن يا مولاي أن قوة أمبوس تعدو بضعة آلاف ...

فقال الملك كاموس :

— أثبتوني بكل ضابط أو جندي من أمبوس ...

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال :

— عفوا يا مولاي ، لقد تغير وجه أمبوس في عشرة الأعوام المنقضية ، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل ، رأيتها بعيني في بعض رحلاتي التجارية ، ومن المرجح أن الرعاة جعلوا منها مركزا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود ...  
فقال القائد محب :

— على أي حال يا مولاي أرى أن نهجم بقوات خفيفة ، حتى لا نتكبد

خسارة فادحة ...

و لم يستحسن الأمير أحسن هذا رأى ، فقال لأبيه :  
— مولاى أرى خلاف هذا رأى ، أرى أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ،  
وأن نقذف جل قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت ،  
فذهل القوات التى تحشد فى طيبة الآن لقتالنا ، ونقاتل من الغد رجالا يرون  
الموت ماثلا فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة بمجنودنا ، فستضعف جيشنا  
بما ينضم إليه من المتطوعين فى كل بلد نغزوه ، ولن يجد عدونا لخسارته عوضا ..  
وراق هذا رأى الملك فقال :

— إن رجالى يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل طيبة ...  
وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم فى كسب الموقعة ،  
للدور الخطير الذى يلعبه فى ضرب الحصار على شواطئ المدن الغنية أو إنزال  
جنود فى مؤخرة العدو ، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة  
الراسية غرب أمبوس ...

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح ، وكان الرعاة رجال  
حرب وجلاد ، ذوى بأس ومقدرة ، وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة  
متأصلة ، فبدعوهم بالمهجوم وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات  
المكونة من مائة عجلة حربية . وأصدر كاموس أمره بالمهجوم ، فاندفعت قوات  
من العجلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوة العدو فثار النقع وصهلت  
الخيل وعزت القسي . ودار قتال عنيف ، وعزم الأمير أحسن على أن يقضى على  
العدو القضاء المبرم فاندفع بمائتى عجلة جديدة على قوات المشاة التى تنتظر نتيجة  
معركة العجلات أمام أبواب أمبوس ، وتبعته قوات من فرقة القسي وأخرى من  
حملة الرماح . وانقضت العجلات على المشاة فاخرقت صفوفهم وألقت فيها  
الاضطراب والفرع ، وانهالت عليهم بالسهم كالطر ، فتشتت شملهم بين جريح  
وقتل وهارب فتلقته قوة المشاة المهاجمة فى كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء

الأخير . وذهل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد ، وانهارت قواته سرعيا ، وتساقط فرسانه وحطمت عجلاته . وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لا يصدق ، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق ، وضربوا بسواعد يشد أعصابها حقد مؤثر وسخيمة مستعرة ..

واقترحت قوات مسلحة أبواب أمبوس ودخلتها عنوة لتحتل الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو ، ومضى الضباط فى الميدان ينظمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى . ووقف الملك كاموس فى وسط الميدان على عجلته يحيط به القواد إلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور ، وكانت الأنباء جاءت به بأن أسطوله كر على سفن العدو وهجم عليها بشدة ، وأنها تفهقرت أمامه دون انتظام ... فسر الملك وقال لمن حوله مبتسما :

— بدء موفق ..

فقال الأمير أحمس ، وكان مغفر الثياب مغبر الوجه متصبب الجبين عرقا :  
— إني أتوق لجنوح معارك أشد هولا ..

فقال كاموس وهو يلقي على وجهه الجميل نظرة إعجاب :  
— لن يطول انتظارك ..

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار خطى حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظرة وقد انبجست الدماء منها فخضبت جلدها الأبيض ومزقتها السهام والرماح ، ثم قال :  
— لا تظنوا هذه الدماء دماء أعدائنا ، بل هى دماء قومنا التى امتصوها وتركوهم يتضورون جوعا .

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن ، ورفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

— لننعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة ..

ثم نظر إلى من حوله وقال بصوت دلت نبراته على القوة والبأس :

— ستمنحن قوتنا في معركتين شديديتين في طيبة وهواريس ، فإذا آزرنا النصر فيهما طهرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد ، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيث المجيد ، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن هواريس ؟..

وتحول الملك ليرجع إلى عجلته ، وفي تلك اللحظة انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسددت قوسا نحو الملك وأطلقت ... ولم يكن في الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق ، فأصاب السهم صدر الملك ، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على المكسوسى ، وهرعوا إلى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والإشفاق ، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة ، ثم ترغ كالشمل وسقط بين يدي ولى عهده ، وصاح الأمير :

— أحضروا هودجا وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدج :

— أبناه .. أبناه ألا تستطيع أن تكلمنا ..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج ، فحملوا الملك وأناموه عليه في عناية فائقة . وركع الطبيب إلى جانبه ، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره ، وأحاطت الحاشية بالهودج في سكون ، يرددون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدي الطبيب . وذاع الخبر في الميدان ففشت الضوضاء ، ثم ساد صمت ثقيل كأنما لحق الفناء بذلك الجيش العرمرم ..

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة ، فتقلص وجه الملك من الألم ، فأظلمت عينا الأمير من الحزن ، وتغم حور قائلا :

— رباه .. إن الملك يتألم ..

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش ، ولكن الملك لم يبد عليه أى تخمس ، وارتعشت أطرافه بصورة جليلة ، ثم تهد تهدة عميقة ، وفتح عينيه فلاح فيهما نظرة قائمة لا تدل على الحياة ، فازداد صدر أحبس انقباضا ، وقال لنفسه شاكيا « لشد ما تغيرت يا والدى .. » . وحرك الملك عينيه حتى استقرتا



على وجه أحسن ، فلاحته فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع .

— ظننت قبل حين أنى بالغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس ..

فصاح أحسن بصوته الحزين :

— فدتك نفسى يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

— كلا صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها .. وكن أشد حذرا منى ، واذكر دائما أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن ديارنا جميعا ..

وخشى الطبيب على الملك من الجهد الذى يبذله فى الكلام وأشار عليه بالسكوت ، ولكن الملك كان يندمج فى إحساس علوى هو الفاصل بين الفناء والخلود ، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع :

— قل لتوتيشيرى إنى لحقت بأبى باسلا مثله .

ومديده لانه ، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها إلى صدره ، وقبض الملك على منكبيه حينما يودعه ، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح ...

وسجى الطيب الجنة ، وسجد الرجال حولها وصلوا صلاة الوداع ، ثم قاموا وكأنهم من الحزن سكارى ، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلاً :

— أيها الرفاق ، يؤسفنى وحق الرب أن أنعى إليكم ملكنا الباسل كاموس ، فقد استشهد فى ميدان الكفاح وفى سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل ، وانتقل إلى جوار أوزوريس متزعاً من صميم نفوسنا ، بعد أن أوصانا بالألا نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويحلب العدو عن ديارنا . وإلى بوصفى حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزىكم فى مصابنا الجلل ، وأذنكم بتولية ملكنا الجديد وقائدنا المجيد أممس بن كاموس بن سيكترع حفظه الرب وأيده بالنصر المبين ..  
فحيا القواد جثة كاموس وانحنوا لأمس الملك الجديد ، وأذن لهم الحاجب بالعودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية ..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكى على الأعناق وقد غلبه الحزن ، فقال وهو يحفف عينيه :

— لتنع نفسك العالية بالغبطة والسلام فى جوار أوزوريس ، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر ، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولاً على نعشك ، وإنك لأكرمنا على الحالين ...

ودخل الجيش أمبوس فى نظامه التقليدى يتقدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها ، فخرجت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وجاءت الجموع الفقيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع ملكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن . ولما رأى الناس الملك الجديد

أحمس سجلدوا في سكون وخشوع ، ولم يتعال في ذلك اليوم هتاف قط ..  
وتسلم كهنة أمبوس الجثمان العظيم وخلا أحمس إلى نفسه فكذب رسالة إلى  
توتيشيرى كما أوصاه أبوه ، وبعث بها مع رسول ...

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول ، قالوا : إن  
الأسطول المصرى هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته ، ولكن القائد  
فمكاف سقط قتلا ، وأن الضابط أحمس أدار دفعة المعركة بعد سقوط القائد ،  
وحاز النصر النهائى ، وقتل قائد الرعاة بيده في معركة عنيفة . وأراد الملك أن  
يكافئ أحمس إباناً ، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول ...

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم أمبوس ، وعهد إليه  
بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها ، وقال الملك لخور :

— ستقدم بقواتنا سريعا ، لأنه إذا كان الرعاة يعذبون قومنا في وقت السلام  
فإنهم سيضاعفون لهم العذاب في وقت الحرب . فينبغى أن نقصر عهد العذاب  
ما وسعنا الجهد ..

واستدعى الملك الحاكم هام ، وقال له أمام حاشيته وقواده :

— اعلم أننى آليت على نفسى منذ اليوم الذى سعت فيه إلى أرض مصر في  
ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين ؛ فليكن هذا شعارك في حكم هذا البلد ؛  
وليكن رائدك أن تطهره من البيض ، فلن يحكم بعد اليوم إلا مصرى ، ولن يملك  
إلا مصرى ، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه في استثمارها ، لهم ما  
يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة ، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفعه في الصالح  
العام ، والمصريون متساوون أمام القانون ، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله ، ولا عبد  
في هذا البلد إلا الرعاة ... وأوصيك أخيرا بمحنة أى فاد إليها واجبها المقدس ...

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر ، وأبحر الأسطول ، ومضت الطلائع تدخل القرى ، فاستقبل فيها أحر استقبال وأجمله حتى شارفوا أبولتبوبوليس مجنا ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل في ريح مؤاتية فلا تجد أثرا لسفن العدو . فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشفية إلى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا في كمين . وبات الجيش والأسطول في أبولتبوبوليس مجنا ، وفارقاها مع الفجر ، وكان الملك وحرسه يسرون في مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية ، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بهما رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد ، وسأل الملك حور :

— ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس ؟

فقال الحاجب :

— بلى يا مولاي ، وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها ، وستنشأ في واديا أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين .

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدو ، وأن المعركة تدور بقوة وعنف . فعمط الملك رأسه نحو الغرب وبدأ على وجهه الجميل الرجاء والأمل ، وقال حور :

— إن الرعاة يا مولاي حديثو عهد بحرب الأساطيل ...

فصمت الملك ولم يجب ، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقة ومعداته ، فاستسلم أحس للتأمل والتفكير ، وتمثلت له أسرته وهى

تلقى نبأ مقتل كاموس ، وكيف تفرغ أمه ستكىموس وتنفجع جدته أحويتى  
وتن الأم الصابرة توتيشيرى وتبكي زوجه نيفرتاى التى أصبحت ملكة مصر ..  
رباه ... لقد سقط كاموس غدرا وخسر جيشه بسالته ودرائته وأورثه تركة مثقلة  
بجلائل الواجبات . ثم سرى خياله إلى الأمام ، إلى طيبة حيث يملك أبو فيس  
ويعانى الشعب ألوان العذاب والذل ، وذكر خنزير الحاكم الهائل الباسل الذى لن  
تهدا نفسه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلا ، ثم لاحت لحاطره الأميرة  
أمريدس وذكر المقصورة التى أصلاهما الهوى فيها نارا مقدسة ، وتساءل : أما  
تزال تتعلق بالتاجر الجميل إسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده ؟

وهنا سعل حور فذكره بأنه لا ينبغي له أن يتشوق إلى أمريدس وهو على رأس  
الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها ، فأراد أن يطرد الفكر : فألقى ببصره  
على جيشه العرمم الذى ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته ، فسرى عنه  
وعاد إلى التفكير فى المعركة الدائرة فى النيل .. وعند منتصف النهار جاءت رسل  
الاستطاع يقولون : إن الأسطولين مشتبكان فى قتال عنيف ، وإن القتلى تسقط  
بكثرة من الجانبين ، وإن القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهّن  
بنتيجة المعركة . فلاح العبوس فى وجه الملك ولم يخف قلقه ، فقال حور :  
— لا داعى للقلق يا مولاي فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها ، وأسطولنا  
يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحس :

— إذا خسرتها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور ييقين :

— وإذا كسبناها يا مولاي كما أتوقع كسبنا الحرب كلها .

وأسمى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف  
للراحة والاستعداد ، على أنه ما كاد يمكث وقتا قصيرا حتى جاءت الأخبار بأن  
الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو ، فقال أحس :

— إن الرعاة مستريحون ، ولا شك أنهم يرحبون بالاشتباك معنا الآن .  
وأمر الملك بأرسال قوة من العجلات لتؤيد قوات الاستطلاع إذا هاجمتها  
قوات تفوقها عددا ، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة في أى  
وقت كان ..

وكان أحسن بحس التبعة الخطيرة التى يتحملها بقيادته الجيش لأول مرة في  
حياته ، وشعر بأنه حامى هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد ،  
فقال لهور :

— ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال الحاجب :

— هذا ما سيحاوله كلا الجيشين . وإذا حطمنا عجلات العدو وسيطرنا على  
الميدان ، أصبح جيشه تحت رحمة قسينا ..

وفي تلك الساعة وأحس يتأهب لخوض غمار المعركة ، جاء رسول من ناحية  
النيل وأخبر الملك أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحسن إباناً  
أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وأن القتال مستمر على أشده .  
فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم ، ولم يجد مهلة للتفكير إذ  
أخبر أن جيش العدو بدأ هجومه . فحيا حور والحاشية وتقدم بحرسه وأمر فرقة  
العجلات بالهجوم ؛ فهجم الجيش في قلب وجناحين اندفعوا صفوفاً متراسة في  
سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالاً . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضا  
كالريخ العاصف في جموع كثيفة من العجلات ، فعلموا أن عدوهم يلقاهم بقواته  
الوحشية التى طالما ساءتهم الخسوف ، فثار الغضب في نفوسهم وصاحوا بصوت  
كهزيم الرعد ، : « حياة أمنمحيث أو ميتة سيكننرع » . وألقوا بأنفسهم في  
المعركة بقلوب تنعطش إلى القتال والانتقام ، فقاتل الفريقان بقوة وقسوة  
ووحشية . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل  
وعزيف القسي . واستمر القتال قاسياً عنيفاً حتى مالت الشمس نحو الأفق

وذابت في بحيرة من دماء . وحلقت في الفضاء أشباح الظلام ، فكف الجيشان ورجع كل إلى معسكره ، وكان أحمر يسير وسط دائرة من حرسه الذى دافع عنه في أثناء كره وفره ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم :  
— كان قتالا غنيا كلفنا أبطالا بواسل ...

ثم تساءل الملك :

— ألم تجد أخبار عن معركة النيل ؟

فقال الحاجب :

— ما يزال الأسطولان يعتركان ...

— أما من جديد عن أسطولنا ؟

فقال حور :

— قاتل في أثناء النهار وهو يرتد ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلا لم فلم تستطع انفصالا حين خيم الظلام ، والقتال ما يزال مستمرا وإنا لفي انتظار ما يجد من الأخبار .

فتجههم وجه الملك التعب ، وقال لمن حوله :

— لندع الرب جميعا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على متن النيل ...

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ في الاستعداد والتأهب ، وجاءت العيون بأنباء مهمة فقالوا : إن الحركة لم تسكن طوال الليل في معسكر العدو . وقرر بعض من جازقوا بالتوغل في الحقول المحيطة بميدان القتال أن قوات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تندفق على هيراكونبوليس طوال الليل وأن تدفقها إلى ما قبل طلوع الفجر . وتفكر حور مليا ثم قال :

— إن العدو يا مولاي يجمع لنا جل قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ، ولا أعجب لذلك لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس قلن يعوق تقدمنا سوى أسوار طيبة المحيطة ...

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل ، فعلم الملك أن أسطوله قاتل قتال المستيس فلم يتمكن منه عدوه كما انتهى ، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطر أسطول الرعاة أن يفصل عنه وقد خسر ثلث قوته . وكف الأسطولان عن القتال ساعات ثم اشتبكا في عراك جديد بعيد مطلع الفجر ، وكان أسطول أحمر إبانا البادىء بالهجوم ، فانشرح صدر الملك وتوثب للقتال بقلب جذل ...

وحين سفور الصبح تقدم الجيشان للقتال ، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة : حياة أمنمحيث أو ميتة سيكنرع . ثم قدموا بأنفسهم في معترك الموت لا يلوون على شيء ، فالتقوا بالعدو في صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتد عليهم ، وقاتلوا بالقسي والرماح والسيوف . ولاحظ الملك أحمر بالرغم من اشتداد القتال أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة ، فعابن القائد البارغ فإذا به



غير حاكم هيراكونبوليس ، وإذا به الملك أبو فيس نفسه الذى أهدى إليه التاج المرصع بالجواهر فى قصر طيبة بجسمة الديدن ولحيته الطويلة وبصره الحاد فتحفز أحسن لهجمات شديدة ، وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرصه يرد عنه هجمات العدو ، فلم يلتق فارسا من القوم إلا جندله فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويسوا من التغلب عليه . وطال أمد القتال ، واندفعت إلى الميدان قوات جديدة من الجانبين ، فاستمر القتال على عنفه وشدته حتى أوشك النهار أن يزول . وفى تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضت قوة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأسير بقيادة رجل شديد البأس ، وضغطته ضغطا شديدا لم تقم معه المقاومة المنهكة القوى ، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوة المحاربة أو للهجوم على المشاة ؛ فأدرك أحسن أن ذاك القائد ذا البأس تحين فى تعبه فرصة مناسبة ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر الرجل بفرضه فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراسة ، أو يوقع مذبحه فى مشاته ؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوته ليضيق عليه ، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر . ولم يتردد لأن الموقف كان خطيرا دقيقا ، فأمر جنوده بالمحجم وهجم على القلب بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال إلى درجة مروعة مفزعة ، واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وحينذاك أرسل أحسن قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأسير ، ولكن القائد كان داهية بارعا ؛ فعدل خطته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو ، وتقهقر هو وبقيّة القوة بسرعة إلى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة استطاع أحسن أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزير حاكم الجنوب الجبار بينانه التين وعضلاته الفولاذية ؛ وقد كلفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم ، وكان أحسن يقول متوعدا غاضبا : « لا بد أن نلتقى يا خنزير وجهها لوجه ... » واستقبله رجاله بالدعاء . ووجد بينهم شخصا جديدا

هو أحمس إيانا ، فتفاعل من وجوده في المعسكر وسأله :  
— ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال أحمس إيانا :

— النصر يا مولاي ، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرننا أربع سفن  
كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه ، وفرث سفن لا تغنى ولا تعين .

فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على منكب القائد وقال :

— لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب ، وإننى بك جد فخور .

فتورد وجه أحمس إيانا وقال بسرور :

— ما من شك يا مولاي فى أننا دفعنا ثمن النصر غاليا ، ولكن أصبحت لنا  
السيادة المطلقة على النيل .

فقال الملك بلهجة رزينة :

— كبدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضا منها ، والفوز فى هذه  
الحرب لمن يقضى على فرسان عدوه .

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك :

— إن حكامنا فى الجنوب يدربون الجنود ويننون السفن والعجلات ولكن  
تدريب فرسان العجلات يتطلب زمنا طويلا ، فلن ينفعنا فى المعركة التى نخوض  
غمارها إلا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرة أخرى ...

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ في التأهب والاستعداد ،  
وارتدى الملك لباسه الحربى واستقبل فى خيمته رجاله وقال لهم :

— لقد صح عزمى على مبارزة خنزr ...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم :

— مولأى ، ينبغي ألا تشل ضربة طائشة عملنا المجيد .

وتوسل كل قائد إلى الملك أن يأذن له فى قتال حاكم الجنوب ، ولكن أحس  
شكرهم وقال لحور :

— لن يشل عملنا خطب وإن جل ، ولن يعوقه مصرعى إذا صرعت ، فلا  
يفتقر جيشى إلى القواد ولا تعوز بلادى الرجال ، وما كان لى أن أضيع من بين  
يدى فرصة أواجه بها قاتل سيكنرع ، فدعنى أقاتله حتى أقتله لأوفى دينأ فى عنقى  
نحو روح كريم يراقبنى من العالم الغربى : ولتنزل لعنة الرب بالمرتدين  
الخائرين ...

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته ، فتوسط الرجل الميدان  
وصاح :

— أيها العدو ، إن فرعون مصر يرغب فى مبارزة القائد خنزr لتسوية حساب  
قديم .

فبرز له رجل من كتبية خنزr :

— قل لمن تدعوه فرعون : إن القائد لا يحرم عدوا شرف الموت بسيفه ...

فامتطأ أحس صهوة جواد كريم ، ووضع السيف فى حاملته والرمح فى  
قرايه ، ونخسه فعدا به إلى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب

تياها فخورا يبدو جسمه كأنه كتلة جبارة من الجرانيت ، فتدانيا رويدا رويدا حتى كاد رأسا جواديهما أن يقاسا ، وعاین كل منهما خصمه فلم يتالك خنزرن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة :

— رباه .. من أرى أمامى ... أليس إسفينيس تاجر الأقزام واللالى ؟ يا لها من دعاية ، أين تجارتك أيها التاجر إسفينيس ؟  
وكان أحمس ينظر إليه فى هدوء وسكينة فقال له :  
— انتهى إسفينيس أيها القائد خنزرن ، وليس لى من تجارة الآن سوى هذا ...  
وأشار إلى سيفه . فملك خنزرن عواطفه وسأله :

— فمن تكون إذا ؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

— أحمس فرعون مصر .

فضحك خنزرن ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :  
— ومن الذى ولاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزوج الذى أهديته إلى  
ساجدا ؟ ..

فقال أحمس :

— ولانى الذى ولى آبائى وأجدادى من قبل ، فاعلم أيها القائد أن الذى  
سيقاتلك هو حفيد سيكنترع ...

فبدا الجد على وجه الحاكم وقال بهدوء :

— سيكنترع .. إنى أذكر ذلك الرجل الذى قضى سوء حظله يوما أن يرغم على منازلتى ، وإنى أكاد أدرك كل شىء فاعزنى على بطاء فهمى . فإننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لانحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف ، أما أنتم معشر مدعى الملك من المصريين فتتحفون طويلا فى ثياب التجار قبل أن تواتيكم شجاعتمكم على ارتداء لباس الملوك ... فليكن ما تريد ، ولكن هل ترغب فى  
مبارزتى يا إسفينيس ؟

فقال أحس بحدة :

— فلترتد من الثياب ما نشاء فهي ثيابنا أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى  
آوتكم مصر . ولا تدعنى إسفينيس ما دمت تعرف أنى أحس بن كاموس بن  
سيكنترع ، أسرة عريقة فى النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم  
تعرف التشرد فى الصحارى ولا رعى القطعان ، وإنى لأرغب حقاً فى مبارزتك  
وإنه لشرف تكسبه كى أؤدى دينا فى عنقى نحو أجل إنسان عرفته طيبة ...

فصاح خنزr قائلاً :

— أرى الغرور يعيمك عن معرفة قدر نفسك ، فظننت أن انتصارك على  
القائد رخ مسوغاً للوقوف أمامى ... فوارحمته لك أيها الشاب الغرير ... ماذا  
تختار أن يكون سلاحك ؟.

فقال أحس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة :

— السيف إذا شئت ...

فقال خنزr وهو يهز منكبيه العريضين :

— هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزr عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه ، ثم سل سيفه وأمسك  
بترسه ، ففعل أحس مثله ووقفاً صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين ، ثم تساعل  
أحس :

— هل نبدأ ؟

فقال خنزr ضاحكاً :

— ما أجمل هذه المواقف التى تتكاشف فيها الحياة والموت ، هلم يا فتى ...  
فتوثب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجه إليه ضربة شديدة  
تلقها الحاكم على ترسه . ثم رد عليه الهجوم وهو يتكلم قائلاً :

— يا لها من ضربة صادقة يا إسفينيس ، وما أظن إلا أن رنين سيفك على ترسى  
ينشد لحن الموت ... مرحى ... مرحى إن صدرى يرحب برسل الموت ، فطالما

طمع الموت ، وأنا ألعب بين مخالبه ، ثم يرتد عنى خائبا وقد أدرك آخر الأمر أنه إنما حضر لغيرى .

وكان الرجل يقاتل دون أن يكف عن الكلام كأنه راقص ماهر يغنى وهو يرقص ، فأرك أحمس أن خصمه عنيد شديد البأس ، فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبار فى الكر والفر ؛ فبذل كل ما لديه من قوة ودراية ، وتفادى من الضربات الموجهة إليه وهو يعلم أنها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحس ثقلها ، ورأى خصمه يتسم فى ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجهه إليه ضربة هائلة تلقاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته ، فسأل أحمس :

— أين صنع هذا السيف المتين ؟

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذلك :

— فى نباتا فى أقصى الجنوب .

فقال الرجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وجهت إليه بمهارة فائقة :

— أما سيفى فقد صنع فى منف بأيدى صناع مصريين .. وما كان صانعه

يعلم أنه يقدم لى ما أقضى به على مليكه الذى تاجر وقاتل فى سبيله :

— فقال أحمس :

— ما أسعده غدا إذا علم أنه كان شؤما على عدو بلاده ..

وكان أحمس يتحين الفرصة لهجوم عنيف ، فما كاد يتم كلامه حتى وجهه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة ، فتحامها خنزر بدرعه وسيفه ولكنه اضطر إلى أن يتقهقر خطوات ، فقفز عليه الملك وهاجمه هجوما قاسيا ووجه الضربة تلو الضربة إلى مقاتله . وأدرك خنزر خطر المصير ، فكف عن مداعبة خصمه وأطبق فمه ، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور . وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس ، فظن الرعاة أنه قضى على

عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحمس هنية : « ترى هل أصبت ؟ » ولكنه لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضععا وقد ارتج ساعده . وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب ، وتوقف أحمس عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر ، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس ، فما كان من أحمس إلا أن خلع ترسه ورمى به جانبا ، فبدت الدهشة على وجه خنزr ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول :

— يا له من نبيل حقيق بأخلاق الملوك ..

واستأنفا القتال فى سكون فبادلا ضربتين شديديتين ، ولكن ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقية خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم ، ودنا الملك منه فى خطى بطيئة ، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له :

— يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزr ...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة :

— بالحق نطقـت أيها الملك ... ولن يعترض سبيلك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزr ووضعـه إلى جانب جثته ، ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره ، وكان يعلم أن الرعاة سيمحاربون بحـق ورغبة فى الانتقام ، فأقبل على فرسانه وصاح بهم :

— أيها الجنود ، ردـدوا شعارنا الخالد : « حياة أمنمـحيت أو ميتة سيكنـترع » . واذكروا أن مصيرنا إلى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة ، فلا ترضوا أبدا أن يضعـب صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة ... ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس . واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة .

وفي مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحسن من الميدان متعباً منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده ، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوض ، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصدهجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة . فساور الملك القلق ، وخشى أن تحطم فرقة العجلات الجبارة يوماً بعد يوم ، وكان في ذاك المساء غاضباً حزينا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة ، فقال وكأنه يحدث نفسه :

— هيراكونبوليس ... هيراكونبوليس ... ترى هل يفتن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟.

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزناً أو غضباً ، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال ، فقال الحاجب حور :

— مولاي ... إن فرساننا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرننا ، وغدا إذا ظهرنا على العدو وحطمنا عجلاته فلن يكون لمشائته قبل بنا ، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاء عجلاتنا عليهم .

فقال الملك :

— كانت غايتي الكبرى أن أقضي على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائما ، كما فعل الرعاة في هجومهم في طيبة . ولكنني بت أخشى أن يقضي على قوتينا الراكبتين معا ، فتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقى على مدننا ولا تنذر ...



وطلب الملك أن يطلع على الإحصاء الأخير للخسائر ، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثي قوتها من العجلات والفرسان . فامتقع أحمر ونظر في وجوه رجاله ، فإذا بالوجوم يعلوها جميعا . ثم قال : — لم يبق لدينا سوى ألفى فارس ... فكيف تقدر أن تخسروا العدو ؟ فقال القائد ديب :

— لا أتصور يا مولاي أنها تقل عن خسارتنا .. وأرجح أنها تزيد عليها ... فحنى الملك رأسه ولبث يفكر مليا ، ثم نظر إلى رجاله وقال : — سيعلم كل شيء غدا ، فغدا يوم الفصل دون شك ، ولعل عدونا يعاني من الحيرة والقلق ما نعانى وأكثر ، وعلى كل حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدا ، والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة .. فقال ديب متسائلا :

— إن أسطولنا لا يحارب الآن ، فلماذا لا ينزل جنودا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب ؟ فقال أحمر إباننا :

— إن أسطولنا سيطر الآن على النيل سيطرة كاملة ، ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدو إلا إذا كان جيشه جميعا مشتبكا في القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتي العجلات ، أما جيش العدو فرباض وراء الميدان مستريحا يقظا ... وسأل أحد كهنة أمبوس قائلا :

— أليس لنا يا مولاي قوة احتياطية من الفرسان ؟ فقال أحمر :

— لقد جئنا مصر بستة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل ، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل في اثني عشر يوما من أيام الجمع ... فقال حور :

— مولای ... إن سین وأمبوس وأبولینوبولیس مجنا تبنی العجلات وتلدرب  
الفرسان بلا توان .

أما أحس إباننا فقال بحماسة الذى لا يعرف اليأس :

— حسبنا شعارنا الذى لقتناه الأم المقدسة توتيشيرى : « حياة أئمنمحيث أو  
ميتة سيكنترع » ، وأن فرساننا لا يغليون ، وأن مشاتنا ليتحرقون شوقا إلى  
القتال ، ولندكر دائما أن الرب الذى أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثا .  
وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتسم الملك ابتسامة مشرقة ، وبات  
الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كمعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح  
تقدمت فرقة العجلات وفي قلبها الملك وحرسه ، ونظر إلى الميدان فرآه خاليا  
فعجب غاية العجب ، ثم أمعن في النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا  
يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة . ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال  
الاستطلاع وقرروا بين يديه أن جيش أبو فيس انسحب من الميدان بمجموعة  
الجرارة وترك هيراكونبوليس في الليل وجد في السير نحو الشمال ، ولم يتالك  
القائد محب أن قال :

— الآن حصحص الحق ... وما من شك في أن قوة عجلات الرعاة  
تحطمت ، وأن أبو فيس أثر أن يفر إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته ...  
وقال القائد ديب فرحا :

— مولای .. لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ...

وكان الملك أحس يتساءل : ترى هل انكشفت الغمة ؟ .. ترى هل حقا  
زالت المخاوف ؟ ثم التفت إلى ديب وقال :

— بل قل إننا حططنا عجلات الرعاة وكفى ...

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح في النفوس ، وهرع رجال الحاشية  
يتقدمهم حور إلى الملك وهتاؤه بالنصر المبين الذى فتح الرب به عليه . ودخل  
أحس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه ، وهرع معه الأهالى إليها من الحقول

فروا إليها خوفا من انتقام الرعاة ، واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا واهتفوا لجيش  
الخلاص هتافا يشق عنان السماء ...  
وكان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذى مد له يد المعونة بعد أن  
كاد يشفى على اليأس ...

واستراح الجيش في هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثني عشر يوما ، وأشرف أحبس بنفسه على تنظيم المدينة وإعادة مصريتها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها . وواسى الأهالى لما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرضت له مدينتهم في أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب .

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب في عصر اليوم نفسه دون مقاومة ، وبات فيها حتى فجر اليوم الثانى . ثم استأنف مسيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية . وشارف وادى لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام ، وكان الملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها فأرسل أحبس طلائع جيشه إليها وحاصر أحبس إباناً شطئانها الغربية ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمناً . وقص عليهم الأهالى وكيف مر بهم جيش أبو فيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم في حالة شديدة من الفزع والفضضى ...

وتقدم الجيش بقواته المهروبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ تريت ، ثم بعدها هزمنتيس ، وكانوا يتوقون جميعاً إلى ملاقاته عدوهم ليشفوا غل صدورهم . ولكن كان السرور يتألق في وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرروا قطعة من الوطن الأثير . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجالات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكى في قلوبهم الأمل والحماسة ، فمضوا ينشدون الأغاني الحماسية ، ويضربون في أرض الوادى بسيقانهم

النحاسية ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة في منطقة طيبة . وكان الوادى ينحدر نحو جنوبها انحدارا فجائيا شديدا ، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنها كانت كسباقتها من المدن بغير حراس ، فدخلها الجيش في سلام . هز دخول هابو قلوب الجنود جميعا لأنها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد ، ولأن كثيرا من جنود الجيش كانوا من بنىها البواسل ، فتعانقت في ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين . ثم تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة وأنفس متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل في تاريخه والمركة الخطيرة التى تقرر مصير طيبة ، وانحدر فى الوادى العظيم الذى يطلق عليه الطيبون « طريق آمون » وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقا وغربا ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثل فيها جميعا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة ، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر ، فتصايحت جنبات الوادى هاتفة : « طيبة .. » « طيبة .. » . وجرى اسمها على كل لسان ولهجت به الأفئدة المضطربة ، وما زالوا يهتفون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ ... وعسكر الجيش العظيم ، ووقف أحس في قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذى حاكته توتيشيرى بيديها ، يرسل ناظره إلى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول :

— طيبة ... طيبة ... يا أرض المجد ... ومثوى الآباء والأجداد ، أبشرى فغدا يطلع عليك صبح جديد ...

واستدعى الملك القائد أحس إباننا وقال له :  
 — سأكل إليك أيها القائد ساحل طيبة الغربى فهاجمه أو حاصره كما يتراءى  
 لك ، مستلهما خططك من الملابس المحيطة بك .  
 وأنشأ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة ، فقال القائد محب :  
 — إن أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحا غالية ، ولكن  
 ما من مهاجمتها بد ، فأبوابها الجنوبية هى السبيل الوحيد إليها .  
 وقال القائد ديب :

— إن محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها ،  
 ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة فى تجويع طيبة ، فلم يبق لدينا سوى  
 مهاجمة أسوارها . ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلام  
 والقباب الواقية ؛ ولكنها ليست كافية كذلك ، ونرجو أن تصلنا منها كميات  
 وافرة . وعلى أية حال إذا كان ثمن طيبة إغاليا فسنبدله عن طيب خاطر .  
 فقال أحس :

— هذا هو رأى ، فينبغى ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار  
 المدينة ، ويحتمل أن يتعرضوا للانتقام عدونا الوحشى .  
 وفى ذلك اليوم تقدم الأسطول المصرى نحو شاطئ طيبة الغربى والتقى أمامه  
 بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس فأطبق عليه واشتبك  
 الأسطولان فى معركة عنيفة ، ولكن كان تغلب المصريين فى عدد الرجال  
 والسفن كبيرا ، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نارا حامية .  
 وأرسل أحس ثلاثين من فرق القسي والرماح لاختبار القوات المدافعة ،

فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم ، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفذ . وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم ، فلما صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم في أرجاء الوادى لتهاجم السور في نقط متباعدة ، محمية بدروعها الطويلة ، فانالت عليهم سهام العدو كالسيل . وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع . ودار القتال بلا رحمة ، وكان المعسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفزين للقتال ، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة ، وقد روع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبا :

— إن جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور وهو يلقي على الميدان بصرا زائفا :

— يا لها من معركة يا مولاي ... أرى الجثث تملأ الميدان ..

وكان القائد محب متجههم الوجه معفر الثياب فقال :

— ألسنا نهاجم الموت سافرا ؟

فقال أحمس :

— لن أدفع بجيشى إلى الهلاك المحقق ، ويحسن لى أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية ، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره .

ولبث الملك مهتاج النفس ، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع ... وفى ذاك المساء عاد الرسول الذى كان بعثه إلى أسرته فى نباتا يحمل رسالة من توتيشيرى ، فيسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتى :

« من توتيشيرى إلى حفيدى ومولاي فرعون مصر أحمس بن كاموس ، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية ، ويوفق رأيه للسداد ، وقلبه للإيمان ، ويده إلى مقتل عدوه .. جاءنى رسولك ينهى إلينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغنى كلمته الأخيرة الموجهة إلى ، ويحسن لى — وأنت تقاتل عدونا — أن أضرب

صفحا عن ذكر ما تحقق به قلوبنا جميعا ، فقد قضى على قلبى أن يذوق الموت مرتين فى حياة قصيرة واحدة ؛ ولكن لا يعز العزاء على من يعيش فى أتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستيق الشجعان إلى الموت ، ولا أكتمك — على ألمى وحزنى — أن رسولا يسعى إلى بموت كاموس ونصر جيشنا ، أحب إلى من أن يجيئنى كاموس نبأ الهزيمة .. فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب الرقيقة المجتمعة حولى ، بتنازعها الحزن والتصير والرجاء ، واعلم يا مولاي أننا نشد الرحال إلى بلدة داهور على مقربة من حدود بلادنا ، لنكون أدنى إلى رسلك ، والسلام » .

قرأ أحسن الكتاب فاستشف ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حار ، وتمثلت له الوجوه التى ودعها فى نباتا ؛ توتيشيرى بوجهها الناحل المكلل بالمشيب ، وجدته أحتوى بجلالها وحزنها وأمه ستكىموس بوداعتها ، وزوجة نيفرتارى بعينها الواسعتين وقدها الرشيق ، وتمتم قائلا : « ربه ! إن توتيشيرى تتلقى طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل ، ولا ينسبها حزنها أملنا المنشود فلاذكر دائما حكمتها ولأتبعها بعقل وقلبي » ...



وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة ؛ فضرب الحصار حول شاطيء المدينة القرى ، وبث الرعب في أنفس أصحاب القصور المطلّة على النيل ، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطيء . ولكنه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولا ارتفاعها بسبب انخفاض النيل في فصل الحصاد ، فاكتمى بماوشتها وضرب الحصار حولها . وكان أحسن إباناً تنازعه نفسه إلى شاطيء البلد الجنوى حيث يقيم الصيادون ، ويحقق بحبه قلب حنون ، وظن أن هذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة . ولكن الرعاة كانوا أكبر حذراً مما ظن فأخذوا الشاطيء من المصريين ، وشغلوا مساحته الممتدة بالحراس المدرعين ..

أما الملك أحسن فقد عدل عن الهجوم بمجماعات كثيفة ، وقدم للميدان نخبة من رجاله المدرين وراء الدروع الطويلة . فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم في حرب قوامها الفن ودقة التصويب . ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية . واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشر بأى نتيجة أو تنبىء بأية نهاية ، فتملأ الملك وقال :

— ينبغي ألا نعطي العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته .

ثم شد أحسن على مقبض سيفه وقال :

— سأمر باستئناف الهجوم العنيف . وإذا لم يكن من بذل النفوس بد فلنقدم أنفسنا كما ينبغي لرجال أقسموا أن يحرروا مصر من نير عدوها الثقيل . وسأوجه رسلى إلى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية ... وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسى والرماح

في الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين ، وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ذيب على اليسرة . ومضى المصريون يتقدمون في موجات واسعة النطاق ، لا تلحق الموجة بسابقاتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمى بالسور المرهوب . فلما تقدم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة ، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم ؛ ولكن خسارتهم على أى حال كانت دون خسارة اليوم الأول ودار القتال على هذا بضعة أيام آخر ، وكثر عدد القتل من الجانبين . واشتد ضغط جناح المصريين الأيمن للعدو حتى استطاع مرة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعددة ، وأن يهلك كل من يتصدى لإطلاق السهام من منافذها . وانتهر بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلم هجوم وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، وسهام إخوانهم تفشاهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهددة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم ، وسر الملك لهذا الهجوم الذى ضرب مثلا رائعا لجيشه ، وقال لمن حوله :

— لأول مرة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودى على سور طيبة .  
والحق كان لهذه الخطوة مغزى عظيم ، فقد تكررت في اليوم الثانى ، ثم وقعت في غداته في نقطتين من السور . ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدو حتى بات الغزو أملا مرجوا قريبا . وفي تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيرا ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار وسلاله وعدد من القباب الواقية . فاستقبل الملك الجنود بسرور ، وقد تضاعف أمله في النصر ، وأمر بتسييرهم في الميدان أمام معسكره لتحريض الجنود ويزدادوا بهم أملا وقوة ...

ودار القتال مع الغداة مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لا تنابه ، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمّة حتى بدا عليه الإعياء

والْيَأْسُ واعتور سواعده النصب ، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو  
عائد من الميدان :

— مولاي ... سنقتحم السور غدا ...

واجتمع رأى القواد جميعا على هذا ، فبعث أحس برسول إلى أسرته يدعوها  
إلى هابو التي يرفرف عليها العلم المصرى ، ليدخلوا جميعا طيبة في الغد القريب ..  
وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل ...

وطلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوثبون ، توقع  
قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر . ثم تقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع  
والقبا ب ، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين ، فرأوا منظرا عجبا لم يتوقعوا رؤيته ،  
فضجوا بالدهشة والانزعاج ، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول . رأوا على  
السور المحيط أجسادا عارية قيدت إليه ، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار  
اتخذ الرعاة منهم دروعا تحميهم شر نياهم وقذائفهم . ووقفوا خلفهن ضاحكين  
شامتين . وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن ،  
والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت الأكباد جميعا ، فضلا عن أكباد  
من هم أزواجهن وأبنائهن . فأسقط في أيدي الرجال وثلت سواعدهم ،  
وسرى الانزعاج في النفوس حتى بلغ الملك فلقاه كأنه صاعقة من السماء ،  
وصاح غاضبا :

— يا للوحشية الممجية .. إن الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال ...  
وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة .  
ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحمي أجساد النساء والأطفال ،  
فاقشعرت أبدانهم هولا ، واصفرت وجوههم غضبا ، وارتعشت أطرافهم ،  
وحامت أزواجهن حول الأسرى المعذنين وأهلهم البواسل الذين وقفوا في الميدان  
أمامهم مكتوفي الأيدي ، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز ، وصاح حور  
بصوت متهدج :

— يا للبائسات ، سيقتلن توالى الليل والنهار إذا لم تمزق قلوبهن السهام ..  
ولفت الحيرة الملك ، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتي يحمين بأجسادهن

وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيبتين . ما عسى أن يفعل ؟ .. إن كفاح أشهر طوال ينذر بالضيق ، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس . فما عسى أن يصنع ؟ .. هل جاء لخلاص شعبه أم للتكيد به ؟ ... وهل أرسل رحمة أم عذابا ؟ .. وجعل يتمم في حزنه : « آمون ... آمون .. ربي المعبود ... إن هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك ، فألهمني الصواب على أن أجد لنفسى مخرجاً » .. وتنبه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل ، عابث ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحمر إباناً ، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلاً :

— مولاي ... لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين ؟ .. أما كان ينبغي أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن ؟ ...

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور :

— انظر لترى بنفسك أيها القائد ...

ولكن أحمر إباناً لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء :

— أذنتي عيوني بالعمل الدنيء الوحشي ، ولكن كيف نرضى أن نساق إلى

أشراك أبو فيس ونحن به عالمون ؟ ..

هل يجوز أن نكف عن الكفاح في سبيل طيبة ومصر إشفاقاً من أن تؤذى نبأنا

بعض النساء والأطفال من قومنا .. !

فقال الملك أحمر إباناً :

— أترى أن أمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟ ..

فقال القائد بحماس وثقة :

— نعم يا مولاي ، إنهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين

يتساقطون في كل حين ، بل مثلهن مثل ملكنا الشهيد سيكتنر وفقيدها الباسل

كاموس . فلماذا نشفق من ذهابهن هذا الإشفاق المعطل لكفاحنا ؟ ...

مولاي ... إن قلبي يحدثنى بأن أمي إباناً بين هؤلاء الأسيرات البائسات .

فإذا صدق شعورى فلا أشك فى أنها تدعو الرب الآن أن يجعل حبك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست الجريح وحدى فى جنودنا . فليضع كل منا حول قلبه درعا من إيمانه وعزيمته ولنهجم ...

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلب وجهه فى حاشيته وقواده ، فقال الحاحب حور بهلوء وكان متجهما ممتقعا :

— صدق أحسن إيانا العظيم .

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

— نعم ... نعم ... صدق قائد الأسطول ولنهجم ...

فالتفت الملك إلى القواد وقال بعزم :

— أيها القواد ، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إن مليكهم الذى فقد فى سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل ...

وذهب القواد سراعا ونفخ فى الأبواق ، فتقدمت صفوف الجند شاكى السلاح مكفهري الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : « حياة أئمنحيت أو ميتة سيكننرع » . وبدأت فى الحال أبشع معركة خاض غمارها الإنسان ، وأطلق الرعاة السهام فرد عليهم المصريون ، وانطلقت نباهم تشق صدور نساءهم وتمزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة . ولوحت النسوة برعوسهن للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة :

— اضربونا ينصركم الرب وانتقموا لنا ...

فجن جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطشت إلى الدماء ، ودوى صراخهم فى جنبات الوادى كعزيف الرعد وزئير الأسود ، واندفعوا لايالون الموت المنصب عليهم كأعما فقبذوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنمية . وحمى وطيس القتال واشتد الطعان ، وسالت الدماء كأنها يتابع تنفجر فى الصدور والأعناق ، وأحس كل هاجم أن فى قلبه غمزا

جنونيا لا يسكن حتى يدفن رمح في قلب واحد من الرعاة . وتمكن الجناح الأيمن قبل أن يتتصف النهار من أن يسكت عدة مواضع دفاعية ، فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت ، فقللوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين ، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلى واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف وتوالت الهجمات بعنف وبسالة ، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى ، ويرسل النجندات إلى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسط فى كبد السماء ، فقال :

— إن جنودى يذلون جهد الجبايرة ، ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولى على السور جميعه ، فنستأنف غدا من جديد ..

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم ، فاشتد ضغط رجاله للمدافعين عن السور الننيع ، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه . والظاهر أن اليأس أخذ يستولى على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات الحمل الزاحفة على سيقان الأشجار ، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة لم يكن يتوقعها أحد ، واحتل جنود أحمرس نقطا كاملة من السور ، وبدأ سقوط السور أمرا محققا لا يحتاج إلا لوقت . وكان أحمرس لا ينفك عن إرسال الإمدادات القوية ، وجاءه فى المعسكر ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه ، فانحنى للملك وقال :

— أخبار جلييلة يا مولاي .. إن أبو فيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالفارين .

فعجب الملك وسأل الضابط قائلا :

— أوافق أنت مما تقول ؟

فقال الرجل بثقة وإيمان :

— رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلح .

فقال أحس إيانا :

— لقد أدرك أبو فيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه فى المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه ، ففر هاربا .

فقال حور :

— والآن أدرك على غير شك أن الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شرويل .

وما كاد حور يتم كلامه حتى جاء رسول جديد من الأسطول فحيا الملك

وقال :

— مولاي .. لقد شبت نيران الثورة فى طيبة ، وشاهدنا من الأسطول عراكا

عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطىء من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على أحس إيانا وسأل الظابط :

— وهل قام الأسطول بواجبه ؟

— نعم يا سيدى ، لقد دنت سفننا من الشاطىء وأطلقت السهام بكثرة على

الحراس حتى لا تمكنهم من التفرغ لقتال الثائرين ..

فلاح الارتياح فى وجه القائد ، واستأذن الملك فى العودة إلى أسطوله لهجوم

على الشاطىء ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطا :

— لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

— نعم يا مولاي ، وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها ..

— ولكن أبو فيس فر بجيشه .

— لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريى ويملو عن مصر آخر رجل من

الرعاة .



وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفي أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها . وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كل جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح . وما لبث أن رأى جنوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفاق ، ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة تفتح على مصراعيها وجنوده تندفع إلى داخلها هاتفة باسمه ، فتمتم قائلاً بصوت خافت : « طيبة .. يا منيع دمي .. ومنبت جسدي .. ومرتع روحي .. افتحي ذراعيك وضمي إلى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل » . ثم حنى رأسه ليخفي دمة متزعجة من ضلوعه ، وكان حور إلى يمينه يصلى ويجفف عينيه وقد تندى خدها النحيلان ..

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغيب ، وأقبل الملك والقائدان محب وديب ، ثم تبعهما على الأثر أحبس إيانا فأنحنوا لأحمس في إجلال وهناؤه بالنصر . فقال أحبس :

— ينبغي قبل أن يهني بعضنا بعضا أن تؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا في سبيل طيبة فائقوني بها جميعا .. وكانت الجثث ملقاة في جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب ، وقد غفرتها الأتربة وخضبته الدماء ، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام وساروا بها إلى جانب من المعسكر وأرقنوها جنباً إلى جنب ، وأتوا بالنساء والأطفال اللاتي مزقتهن سهام جنودهم ووضعوهن في مكان منعزل . وتوجه الملك إلى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المترصة انحنى في إجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله . ثم سار في خطى بطيئة ماراً بها كأنما يستعرضها في حفل رسمي مشهود ، ثم عدل إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجدوا أجسادهن العارية بأغطية من الكتان ، فأظلت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه ، وتنبه من كمدته على صوت القائد أحبس إيانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلاً :

— أماء ..

فالتفت الملك ورائه فرأى قائده يجثو متألماً متفجعاً أمام إحدى الجثث ، فألقي عليها الملك نظرة فاحصة فعرف السيدة إيانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء المروع . فوقف الملك إلى جانب قائده الجائى خاشعاً حزين الفؤاد ، وكان يكن

للسيدة احتراماً عظيماً ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها في تربية أحسن خير قواده بلا نزاع . ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال بصوت متهدج :  
— أيها الرب المعبود آمون ، خالق الكون ، وواهب الحياة ومنظم كل شيء بسنته العالية ، هذه ودائعك ترد إليك تبعاً لمشيئتك ، وقد كانوا في عالمنا يعيشون لغيرهم وكذلك ماتوا . إنهم قطع عزيمة تناثرت من قلبي ، فتغمدهم برحمتك ، وعوضهم عما فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبدية باقية .

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال :  
— أيها الحاجب ، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعاً وتودع مقابر طيبة الغربية ، ولعمري إن أحق الناس بأرض طيبة من استشهدوا في سبيلها ..  
وعاد في تلك الأثناء الرسول الذي كان أرسله الملك إلى أسرته في دابور وقدم إلى مولاه رسالة ، فعجب الملك وسأله :  
— هل عادت أسرتي إلى هابو ؟  
فقال الرجل .  
— كلا يا مولاي .

فبسط أحسن الرسالة وكانت موجهة من نوتيشيري وقرأ :  
« مولاي المؤيد بروح آمون وبركته ، أسأل الرب أن يلغك كتابي هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمّد جراحها ، وتسعد روحى سيكتنزع وكاموس . أما نحن فلن نبرح دابور ، وقد فكرت في الأمر طويلاً فوجدت أن خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذب وآلامه ، أن نبقي في منفانا حيث نحن الآن نعانى آلام الوحشة والغربة ، حتى نخطم أغلاله وترفع عنه النقمة ، فندخل مصر آمين ونقاسمه السعادة والسلام . فسر في طريقك مؤيداً بالعناية الربانية تحرر البلدان وتقهّر الحصون . وطهر أرض مصر من عدوها ولا تجعل له في أقطارها موضع قدم ، ثم ادعنا نأت آمين » .  
ورفع أحسن رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم :

— تقول توتيشيرى إنها لا تدخل مصر حتى نجلي عنها آخر رجل من الرعاة ..

فقال حور :

— إن أمتنا المقدسة تريد ألا تكف عن القتال حتى نحرر مصر . .

فهز الملك رأسه بالموافقة ، فتساءل حور :

— ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟

فقال أحبس :

— كلا يا حور ، سيدخلها جيشى وحده ، أما أنا فسادخلها مع أسرتى بعد

طرد الرعاة . ندخلها جميعا كما فارقناها جميعا منذ عشرة أعوام مضت .

— سيمنى أهلها بخيبة أمل ! ..

— قل لمن يسأل عنى إلى أتعقب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدسة ،

وليتبعنى من يحببنى ..

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونية ، وكان في نيته أن يصدر أمره إلى قواده بأن يدخلوا المدينة في نظامهم التقليدى على أنغام الموسيقى الحربية ، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال :

— مولاي كلفنى قوم من قادة الثورة أن أستاذن لهم في الثول بين يديك ، ليقدموا لذاتك العلية هدايا مما غنموا في ثورتهم .

فابتسم أحس وسأل الضابط :

— أقادم أنت من المدينة ؟

— نعم يا مولاي .

— هل فتحت أبواب معبد آمون ؟

— فتحتها الثوار يا مولاي .

— ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا ؟

— يقولون يا مولاي إنه أقسم ألا يرح خلوته وفي مصر رجل من الرعاة إلا عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك وقال :

— حسنا .. ادع قومى ..

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسرون جماعات جماعات ، تسوق كل جماعة هديتها . واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة إلا من أزر على أوساطهم ، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر ، ويدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة تعرت رءوسهم وتلبدت لحاهم وتعفرت جباههم . ثم سجدوا للملك حتى مست الأرض جباههم ، ولما رفعوا

وجوهم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور ، وقال كبير القوم :  
— مولانا أحسن بن كاموس بن سيكنترع بن فرعون مصر ومحرمها  
وحاميا ، والغصن السامق من تلك الدوحة الياسقة التى استشهدت أصولها فى  
سبيل طيبة المحجدة ، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرا عن إساءة الأيام إلينا ..  
فقال أحسن مبتسما :

— أهلا بقومى الأعزة ، من آمالهم كآمالى ، وآلامهم من منبع آلامى ، ولون  
بشرتهم كلون بشرتى ..  
فأضأت وجوه القوم بنور بهيج ، ووجه كبيرهم الخطاب إلى الرعاة قائلا :  
— اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده .

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الرجل :  
— مولاي .. هؤلاء الرعاة من نفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق ، كأنما  
توارثوها عن آبائهم خلفا عن خلف ، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف  
واستأدوهم أشق الأعمال بأزهد الأجور ، جعلوهم فريسة للفقير والجوع  
والمرض والجهل . ثم كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلاحون ، ومنوا عليهم أن  
تركوهم أحياء.. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العلية عبيدا  
من أذل عبيدك ...

فابتسم الملك وقال :  
— أشكر لكم يا قومى هديتكم ، وأهنتكم على استرداد سيادتكم  
وحريتكم ..

وسجد الرجال للملك مرة أخرى وغادروا الخيمة ، وساق الجنود الرعاة إلى  
معتقل الأسرى . ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل  
ناصع البياض ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة بظهرة وذراعيه ،  
فسقط إعياء عند قدمى الملك دون أن يحفل به معذبه ، وسجدوا للملك طويلا  
وقال رجل منهم :

— مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون ، هذا الشرير المؤزر بلباس الذل كان كبير شرطة طيبة ، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسي لأتفه الأسباب ، فمكثنا الرب منه فألبنا ظهره بسياطنا حتى مزق جلده ، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضم إلى عبيده ..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند ، وشكر لقومه ضيعهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلا ما إن وقع عليه بصر الملك حتى عرفه ، فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزr ، فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عنين فلقطين دهشتين لا تكادان تصدقان ، وحيا الرجال الملك وقال لسانهم :

— إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة ، كان يقسم بالعدالة ويقضى بالظلم فى كل حين ، فأورد مشرب الظلم ليزوق ما كان يسقى الأبرياء .

فقال أحمرس موجهها خطابه للقاضى :

— يا سنموت ، لقد كنت حياتك تحكم على المصريين ، فرض نفسك هذه المرة أن يحكموا عليك .

ودفع به إلى جنوده ، وشكر رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى ستر من الكتان من ذؤابته إلى نعليه ، فحبوا الملك هاتفين : وقال قائلهم :

— يا فرعون مصر وحامى المصريين والمنتقم لهم ، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وأدرعوا بهن فى موقعة طيبة . وأراد الرب أن يتقم لنا من أبو فيس الظالم فهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه ، وخطفنا دون علمه من هى أعز عليه من نفسه ، وجئنا بها إليك لتنتقم لنسائنا منها ..

ودنا الرجل من الشخص المتخفى فى دثار من الكتان وأزاح عنه الستار ،

فبدت امرأة عارية إلا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية كالنور ، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب ، ويلوح في وجهها الفاتن الخنق والغضب والكبرياء ، فبهت أحمس ، ونظر إليها ونظرت إليه فبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والخنق والكبرياء وتتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق : « الأميرة أمرتيدس .. » .

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها ، وصاح أحمس برجاله :  
— لماذا تمثلون بهذه المرأة ؟ ..

فقال زعيم القوم :

— إنها ابنة كبير السفاكين أبو فيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطشين للانتقام ، فقال :  
— لا تمكنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدسة ، فالفاضل حقا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب ، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى .

فقال رجل من القوم موتور :

— يا حامى المصريين ، إن شفاء صدورنا في إرسال رأس هذه المرأة إلى أبو فيس .

فقال أحمس :

— هل تحشون مليكمكم على أن يكون كأبو فيس سفك دماء وقتل نساء ؟ ..  
كلوا الأمرلى وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا . ونادى الملك أحد ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضى بالأميرة إلى سفينته الفرعونية ، وأن يحوطها بالعناية . وكان الملك يكابد ثورة في القلب والنفس فلم يحتمل القعود ، فأصنדר أمره إلى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر والنصر . ولما تحول إلى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين ...



وخلا الميدان ، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه ، وكان يبحث سائقي عجلته على السرعة ويفرق في الأحلام والأفكار ، أى صدمة تعرض لها قلبه اليوم !.. أى مفاجأة كابدها وعاناها ؟.. ولم يكن يدور بخلفه أنه سيلقى أمرئيدس مرة أخرى فمضى باليأس منها ، وتمثلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثم ابتلعتة الظلماء . ولكنه رآها مرة أخرى على غير انتظار أو حسابان ، ألقت بها المقادير إلى رحمته فغدت بغثة في ملكه الخاص ، لشد ما اضطرب صدره وخفق قلبه ، لشد ما تيقظت في نفسه عواطف حارة أحييت من جديد ذكرياته الحلوة : فانغمر في تيارها الحنون ناسيا كل شيء .

ولكن هى ، هل عرفته يا ترى ؟.. وإذا لم تكن عرفته ، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد إسفينيس ؟.. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوراف « إلى اللقاء » ؟ ومن خنت إليه في منفاه فبعثت إليه برسالة كمن الحب في سطورها كمون النار في الحجر ؟.. أما يزال قلبها يخفق خففته الأولى في مقصورة السفينة الفرعونية ؟.. رياه .. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حد لها ؟.. هل يصدق قلبه أم يخدعه ؟ وتمثل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه ، فانتفض جسمه القوى وسرت فيه قشعريرة ، وتساءل حزينا والقوم الغاضبون من حولها يصقون عليها ويسبونوا ويلعنون أباه ؟.. وإنه ليذكر ما كان يلوح في وجهها من الغضب والحنق والكبرياء ، فهل يسكت غضبها إذا علمت أنها أسيرة إسفينيس ، وأحس قلقا لم يساوره في أخرج المواقف ، وكان ركبته بلغ الشاطئ فهبط إلى السفينة الفرعونية ، ودعا إليه الضابط الذى عهد إليه بالأميرة وسأله :

— كيف حال الأميرة ؟

— وضعت يا مولاي في مخدع خاص وجيء لها بنياب جديدة وقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسه ، وعاملت الجنود معاملة تنطوى على الاحتقار ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك ..

فبدأ على الملك عدم الارتياح ، وسار بخطوات هادئة إلى المخدع ، ففتح الباب أحد الحراس وردده بعد دخول الملك . وكان المخدع صغيرا أنيقا يضيئه مصباح كبير يتدلى من سقفه ، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة في ثوب بسيط من الكتان وقد مشطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته صغيرة كبيرة . فنظر إليها مبتسما فرآها ينظر إليه في دهشة وغبابة وهى لا تصدق عينها ، وبدت له كأنما هى في حيرة وشك ، فحيأها قائلا :

— طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه ، ولكنها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكا . وكان الشاب يطيل النظر إليها في شغف وافتتان ، فسألها :

— هل يعوزك شيء ؟

فتفرست في وجهه ، ثم صعدت بصورها إلى خوذته وخفضته إلى درعه وسألته :

— من أنت ؟

— أدعى أحسن فرعون مصر ؟

فلاح الإنكار في نظرة عينها . وأراد أن يزيدا حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه إنها لا تستطيع أن تصدق عينها . ورآها تنظر إلى شعره المجعد بغرابة ، فقال كالدهش :

— مالك تنظرين إلى هكذا كأنك تعرفين لى شبيها ؟

فلم تدر ما تقول ولم تحرجوا ، واشتاق إلى سماع صوتها والتماس حنانها فقال

لها :

— هبى أننى أجبتك أنى أدعى إسفينيس ، فهل تردى على ؟  
وما كادت تسمع اسم إسفينيس حتى قامت واقفة وصاحت به :  
— إذن أنت إسفينيس !  
فلدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها وهو يقول :  
— أنا إسفينيس أيتها الأميرة أمريدس .  
فجذبت معصمها بشدة وقالت :  
— إنى لا أفهم شيئاً .  
فابتسم أحس وقال برقة :  
— ماذا تعنى الأسماء ؟.. كنت بالأمس أدعى إسفينيس وأدعى اليوم أحس ،  
ولكنى شخص واحد وقلب واحد ...  
— يا للغرابة ... كيف تقول أنت شخص واحد ؟.. كنت تاجراً تباع الخلى  
والأقزام ، وأنت اليوم تقاتل وترتدى ثياب الملوك .  
— ولم لا ؟.. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفياً ، وأنا اليوم أقود  
قومى لتحرير بلدى واسترداد عرشى المسلوب ...  
فنظرت إليه نظرة طويلة تحير فى إدراك كنهها . وحاول أن يدنو منها مرة  
أخرى ، ولكنها صدته بإشارة من يدها وجمدت قسماى وجهها وتبدت  
القساوة والكبرياء فى عينيها ، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بابل  
الرجاء المفردة فى صدره ، وسمعها تقول بشدة :  
— ابتعد عنى .  
فقال لها ب رجاء :  
— ألا تذكرين ...  
ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذى اشتهر  
به قومها :

— اذكر وسأذكر دائما أنك جاسوس وضع ...  
فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب ، وقال بغضب :  
— أيتها الأميرة ... ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟  
— أى ملك يا هذا ؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة :

— فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

— وأبى أكون أحد ولاتك !؟

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعا ، فقال :

— ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاقى ، ولكنه مغتصب على عرش  
بلادى ، وقد هزمته شر هزيمة وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنته تقع  
أسيرة بين أيدي القوم الذى ظلمهم ، وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلوذ  
بالصحارى التى قذفته إلى وادينا ... ألا تدركين هذا ؟ ... أما أنا فملك هذا  
الوادى الشرعى لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفر أسترد  
بلادى عنوة واقتدارا .

فقالت ببرود وسخرية :

— طبت من ملك يروع قومه فى مقاتلة النساء ...

— يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومى هؤلاء بحياتك ؟.. لقد كنت تحت  
رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التى استنها أبوك فى تعريض النساء  
والأطفال لنبال المقاتلين ...

— وهل تضعنى على قدم المساواة مع أولئك النسوة ؟

— ولم لا ؟ ...

— معذرة أيها الملك .. فإنه كبر على أن أتصور أنى مثل إحدى نساءكم أو أن  
أحدا من قومى مثل أحد من قومكم إلا أن يتساوى السادة والعبيد ... ألا تعلم

أن جيشنا غادر طيبة لا يحس ذل المغلوب ، وكانوا يقولون باستهانة تأر عبيدنا  
وسنكر عليهم ...

وجن جنون الملك وغلبه الغضب على أمره ، فصاح بها :  
— من العبيد ومن السادة ؟.. إنك لا تدركين شيئا أيها الفتاة المغرورة ؛  
لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادى الذى يوحى بالمجد والعزة ، ولو تأخر  
مولدك قرنا من الزمان لولدت فى أقصى صحارى الشمال الباردة ، ولما سمعت من  
يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا . من تلك الصحارى جاء قومك فاجتصبوا  
سيادة وادينا وجعلوا أعزته أذلة ، ثم قالوا جهلا وغرورا إنهم أمراء وإننا فلاحون  
عبيد ، وإنهم يبيض وإننا سمر ، واليوم يأخذ العدل مجراه فيرد إلى السيد سيادته ،  
وينقلب العبد إلى عبوديته ، ويصير البياض سمة الضارين فى الصحارى الباردة ،  
والسمرة شعار سادة مصر المطهرين بنور الشمس .

هذا الحق الذى لا مرأى فيه ...

فاحتدم الغيظ فى قلب الأميرة واندفع الدم إلى وجهها ، وقالت باحتقار :  
— أنا أعلم أن أجدادى هبطوا مصر من الصحراء الشمالية ، ولكن كيف  
غاب عنك أنهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هذا  
الوادى ؟.. كانوا وما يزالون سادة ذوى كبرياء ونخوة ، لا يعرفون سوى السيف  
سبيلا إلى هدفهم ، لا يتخفون فى ثياب التجار كى يطعنوا اليوم من سجدوا له  
بالأمس القريب ...

فحدجها بنظرة قاسية متفحصة ، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين  
ولا تخاف ، وتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية ، فاشتد به الحق ، وأحس  
رغبة حارة إلى إخضاعها وإذلالها ولا سيما بعد أن أذلت عواطفه بكبريائها  
وصلفها ، فقال بصوت هادئ متعال :

— لا أرى سبيلا يدعونى إلى الاستمرار فى مجادلتك ، ولا يجوز أن أنسى أنى  
ملك وأنتك أسيرة .

— أسيرة كما تشاء ، ولكنى لن أذل أبدا .  
— بل إنك تحتمين برحمتى فتؤاتيك هذه الشجاعة .  
— لم تفارقنى شجاعتى قط ... سل رجالك الذين خطفوني غدرا ينبوك عن شجاعتى واحتقارى لهم فى أخرج الأوقات وأشدّها خطرا على .  
فهز كفيه العريضتين استهانة ، وتحول إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :  
— لقد قلت حقا إنى أسيرة ، وليست سفيتك المكان الذى يصلح للأسرى ، فالحقنى بأسرى قومى ...  
فنظر إليها مغيظا محنقا وقال يغيظها ويخيفها :  
— ليس الأمر كما تتصورين ، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخرون عبيدا ، أما النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر ...  
فقالت وقد اتسعت حلقتهما :  
— ولكنى أميرة ...  
— كنت أميرة ... ولست الآن سوى أسيرة .  
— كلما ذكرت أنى أنقذت حياتك يوما يجن جنونى ...  
فقال بهدوء :  
— فلتحى هذه الذكرى ... فبفضلها أنقذت حياتك من أيدي الثائرين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك إلى أبو فيس .  
وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبا حانقا ، وحياه الحراس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة ، وسار إلى مقدمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة ماثلا صدره بهواء الليل الرطيب ، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل تشق الظلماء إلى شمال طيبة . فأرسل الملك بناظره إلى المدينة فارا إليها من هموم نفسه ، وكان النور يشع من سفن الأسطول الراسية إلى شاطئ المدينة ، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة فى الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارون ،

ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التى يحملها  
الساھرون الفرھون ، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف  
والأنشيد ، فجرت على فمه العريض ابتسامة ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش  
الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة وأعيادها الخالدة ...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى حتى حاذته فى مسيرها ، ورأى  
الملك القصر مضاء يشع النور من نوافذه وحديقته ، فعلم أن حور يشرف على  
تهيئته وتطهيره ، وأنه عاد حقا إلى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكتنرع وشاهد  
أحمس ميناء حديقة القصر فعادته الذكرى الأليمة ، ليلة حملت السفينة الفرعونية  
أسرته إلى أقاصى الجنوب والدماء تتفجر من ورائها ...

وعاود الملك السر جيئة وذهابا على مقدم السفينة ، واتجه بصره مرات إلى  
مخدع الأميرة المغلق ثم تساءل متبرما ساخطا : لماذا جاعونى بها ؟ ... لماذا جاعونى  
بها ؟ ...

وفي صباح اليوم الثاني بكر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك في سفيته الراسية شمال طيبة ، فاستقبلهم الملك في المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادىء :

— أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر ، لقد خلفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح ، وهزها الشوق إلى اجتلاء نور جبين مخلصها وعمرها .  
فقال أحمس :

— لتفرح طيبة ، أما اللقاء فحين يقضى الرب بالنصر .  
فقال حور :

— وذاع بين الأهليين أن مليكهم في طريق الشمال وأنه يرحب بمن يلحق به من القادرين ، ولا تسل يا مولاي عن الحماسة التي فاضت بقلوب الشباب ، ولا عن توافتهم على الضباط ليضموهم إلى جيش أحمس المعبود .  
فابتسم الملك وسأل رجاله :

— وهل زرتم معبد آمون ؟  
فقال حور :

— نعم يا مولاي زرناه جميعا ، وهرع إليه الجنود يتمسحون بأركانه ويمرغون وجوههم في ترابه ويمانقون كهنته . وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وترددت صلاتهم في جنبات المعبد ، فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبون جميعا في صلاة جامعة ، أما نوفر آمون فلم يرح عزله ...  
فابتسم الملك ، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس إباننا صامتا مكتئبا فأشار إليه أن يقترب ، فاقترب القائد من مولاه ، ووضع الملك يده على منكبه



وقال له :

— تحمل نصيبك من الأذى يا أحمس ، واذكر أن شعار أسرتك الشجاعة  
والبذل .

فحنى القائد رأسه شاكرًا و قد دخلته رقة من عطف الملك عليه ، ونظر أحمس  
إلى رجاله وقال :

— أشيروا على فيمن أختاره حاكمًا لطيبة ، وأعهد إليه بمهمة تنظيمها الشاقة...  
فقال القائد محب :

— إن خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور ...  
ولكن حور بادر يقول :

— إن واجبي في السهر على خدمة مولاي لا في التخلف عنه .  
فقال أحمس :

— صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .  
فقال حور :

— يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأي  
هو توتى آمون وكيل معبد آمون ، فإذا شاء مولاي فليعهد إليه بشئون طيبة .

فقال أحمس :

— قد وليناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته .

ومضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة  
واللهو والغناء والشراب ، واستبق الجنود الطيبون إلى منازل أهلهم فتعانقت  
القلوب وامتزجت النفوس ، وضارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا  
الخافق . أما أحّمس فلم يريح سفينته ، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة  
وسأله عنها ؟ فقال له الرجل : إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما . وكان يفكر  
في وضعها في سفينة أخرى ويعهد بها إلى حراس أمّناء ، ولكنه لم ينته من تفكيره  
إلى عزم قاطع ، ولم يشك في أن حور غير راض عن وجودها في سفينته ، وأيقن  
أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبو فيس هذه الخطوة لديه ، وكان يعرف حق  
المعرفة ، ويعلم أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو فكانت عواطفه  
متعطشة فائرة ، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته ، أو  
في صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب ، فإن الغضب لا يقتل  
الحب ولكنه يحجبه حيناً من الزمن كما يكدر الضباب وجه المرأة المصقولة إلى  
حين ، ثم ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء . ولذلك لم يسلم لليأس ، وجعل يقول  
لنفسه متعزياً : لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع في  
الأسر ، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من  
الحب فتلين وتذعن وتؤدى للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه ، أليست هي  
صاحبة المقصورة التي أنقذت حياته ومنحته العطف والود ؟... أليست هي  
التي أقلقها غيابها فكثبت إليه رسالة عذل تضر أنين الحب المكثوم ؟... فكيف  
تذوى عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب ؟.. وانتظر الأصيل ثم هز  
كفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع ، وحياه الحرس وأوسعوا له فدخل

كبير الرجاء . ورآها تجلس في جمود وهدوء تلوح في عينيها الزرقاوين الكآبة  
والملل ! قائلة كاتبها وقال لنفسه : كانت طيبة على رحابتها تضيق بها ، فكيف  
وقد حبست في هذا المخدع الصغير ؟ .. ووقف أمامها جامدا فاستوت في جلستها  
ورفعت إليه عينيّن باردتين ، فقال لها بركة :

— كيف كانت ليلتك ؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض ، فألقى على رأسها ومنكبها  
وصدرها نظرة مشوقة ، وأعاد سؤاله قائلا وقد ظن أن أمه قريب :

— كيف كانت ليلتك ؟

وبدا عليها كأنها لا تريد أن تخرج عن الصمت ، ولكنها رفعت رأسها بحدة  
وقالت :

— كانت أسوأ ليالي ...

فأغضى عن لمحتها وسألها :

— لماذا ؟ .. هل يعوزك شيء ؟ ..

فقالت دون أن تغير لمحتها :

— يعوزني كل شيء .

— كيف ؟ .. لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بترم قائلة :

— لا تتعب نفسك في ذكر هذا .. فإنه يعوزني كل شيء أحبه ، يعوزني أبى

وقومى وحرىتى . ولكن لدى كل ما أكرهه ... هذه الثياب وهذا الطعام وهذا

المخدع وهؤلاء الحراس ...

فمنى بالخيبة مرة ثانية وأحس انهيار آماله وذهاب رجائه ، فجمدت أساريره

وقال لها :

— أتريدى أن أفك أسرك وأرسلك إلى أبيك ؟

فهزت رأسها بعنف وقالت بشدة :

( كفاح طيبة )

— كلا ...

فنظر إليها متعجبا متحيرا ، ولكنها استدركت بمثل هذه اللهجة قائلة :  
— كيلا يقال إن ابنة أبو فيس ضرعت إلى عدو أبيها العظيم أو أنها استحققت  
الثناء يوما ..

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها :  
— إنك لا تتحرجين في إظهار صلفك اطمئنا منك إلى رحمتي ...  
— كذبت ...

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال :  
— يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم ، هل تعلمين ما تستوجبه  
إهانة الملك من عقاب ؟ هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم ؟ .. أنا لو شئت لجعلتك  
تجثين عند قدمي أصغر جنودى سائلة الصفح والتوبة ...  
أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده في نفسها ، فوجدها تتحداه بعينها القاسيتين  
لا تفضميها ، والغضب يسارع إليها إسراره إلى بنى قومها جميعا ، وقالت بحدة :  
— نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سبيلا ، ولا يذل كبرياؤنا حتى تطوى  
السموات أيدي البشر .

وتساءل في غضبه هل يجرب إذلالها ؟ .. لماذا لا يذلها ويدوس كبرياءها  
بقدمه ؟ .. أليست هى أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه ؟ .. ولكنه لم  
يرتح إلى هذا الهوى . كان يطمع فيما هو أعذب وأجل . فلما أدركته الحية نار  
كبرياؤه واحتد غضبه فزهد في استدلالها ، على أنه أظهر غير ما يظن فقال بلهجة  
كلهجتها كبرياء :

— إن مشيتي لا تقتضى تعذيبك فلن تعذبى لذلك ... وإنه لمن أعجب  
الأمر أن يفكر إنسان في تعذيب جارية حسناء مثلك .

— بل أميرة ذات كبرياء .

— كان هذا قبل أن تقعى أسيرة فى يدي ..

أما أنا فأوثر أن أضحك إلى حريمي على أن أعذبك : ومشيتي هي النافذة ...  
— ستعلم أن مشيتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا على ، وأنتك لن تمسنى  
حية ...

فهز كتفيه استهانة ، ولكنها استدركت قائلة :  
— من عادتنا المتوارثة أنه إذا وقع فرد منا في أشراك ذل ولم يستطع النجاة ،  
امتنع عن الأكل حتى يقضى كريما ...  
فقال متهمكا :

— حقا ؟ ... ولكنى رأيت قضاة طيبة يساقون إلى فيسجدون صاغرين سائلة  
أعينهم العفو والمغفرة ...

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت ، وضاق الملك بحديثها ذرعا وكان يعانى  
مرارة الخيبة فلم يطق البقاء ، وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :  
— لن تجدى حاجة إلى الامتناع عن الطعام ...

وغادر المخدع مغضبا ساخطا وقد بيت نيته على أن ينقلها إلى سفينة أخرى ،  
ولكن ما كاد غضبه يسكت حين خلا إلى نفسه في المقصورة حتى عدل عن نيته  
فلم يصدر أمره ...

ومثل الحاجب حور بين يدي الملك في مقصورته وقال :

— مولاي ، جاء رسل من قبل أبو فيس يستأذنون في المثل بين يديك .  
فعجب أحس وسأله :

— ماذا يريدون ؟

فقال الحاجب :

— قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا ...

فقال أحس :

— ادعهم على عجل ...

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل ، وعاد إلى مولاه ينتظران . ولم يلبث أن جاء الرسل مع شزيمة من ضباط الحرس ، وكانوا ثلاثة يتقدم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج ، وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفخفاضة من الحجاب ، بيض الوجوه ، طوال اللحي ، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء ، ووقفوا في غطسة ظاهرة ، فرد أحس تحيتهم في كبرياء وسألهم :

— ماذا تريدون ؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجمية متغطرة :

— أيها القائد ...

ولكن حور لم يمكنه من إتمام عبارته ، فقال له بهدوئه الطبيعي :

— إنك تحدث فرعون مصر يا رسول أبو فيس ...

فقال الزعيم :

— الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد ، وما دام لنا رجال وفي أيدينا سلاح ، فأبو فيس فرعون مصر لا شريك له ...  
فأوماً أحسن إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول :  
— تكلم فيما جئت من أجله ...

فقال الزعيم :

— أيها القائد ، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعوني الأميرة أمرتيدس كريمة مولانا الملك أبو فيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون ؟  
— هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا في حصار طيبة ؟ ... ألم يذكر كيف عرضهن لسهام أبائهن وأزواجهن تمزقهن شر ممزق ، وجنودكم الجبناء مدرعون بهن ؟ ..

فقال الرجل بحدة :

— إن مولاي لا يتصل من تبعة عمله ، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة ...

فهز أحسن رأسه بنفور وقال :

— بل الحرب تزال بين الرجال ، يفصل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء ، وهي عندنا صراع لا ينبغي أن يطغى على ما بنفوسنا من المروعة والدين ... على أنى أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهذا رأيه في الحرب ؟ ..

فقال الرسول بإباء :

— إن مولاي يستفهم لغاية في نفسه ، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق ...  
وتفكر أحسن ملياً ، ولم يغب عنه الباعث الذي حدا بعلوه إلى السؤال عن ابنته . ولذلك قال بوضوح وبلمهجة نمت عن الاحتقار :

— عد إلى مولاك وقل له إن الفلاحين قوم شرفاء لا يفتالون النساء ، وإن الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم ، وإن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها .. فبدا على الرجل الارتياح وقال :

— لقد انقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالا ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة . فقال له أحبس :

— وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .

فصمت الرجل مليا ثم قال :

— وقد أمرت ألا أعود حتى أراها بنفسى .

وبدا الإنكار على وجه حور ، ولكن أحبس بادر الرسول قائلا :

— سترها بنفسك .

فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجي الذى يحمله تابعاه وقال :

— وهذا الصندوق يحوى بعض ثيابها ، فهل تأذن لنا فى تركه فى حجرتها ؟

فسكت الملك هنيئة ثم قال :

— لك هذا .

ولكن حور مال إلى مولاها وهمس قائلا :

— ينبغي أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك على رأى حاجبه ، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدى الملك ، ثم فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبا ثوبا ، وعثر بحق صغير فأمسك به وفتحه فإذا ما به عقد ذو قلب زمردى . وارتعد قلب الملك لمرآه : وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآله يوم كان يدعى إسفينيس ويبيع اللائى فتورد وجهه ، أما حور فقال :

— هل السجن مكان صالح للزينة ١٩



فقال الرسول :

— هذا العقد حلية الأميرة المفضلة لديها ، فإن شاء القائد أبقيناه ، وإلا  
أخذناه معنا .

فقال أحبس :

— لا بأس بإبقائه .

ثم التفت الملك إلى الضباط وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة ،  
ومضت الرسل ومضى الضباط في إثرهما ...

وفي ذات المساء لحقت بالجيش قوات آتية من الجنوب من مدرى أبولينوبوليس وهيراكونبوليس ، ورسّت في ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقياب الحصار موجهة من أمبوس ، وبشر ربانها الملك بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان المدربين . وانضم إلى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عما فقدته من الرجال وأرى عدده على اليوم الذى اخترق الحدود غازيا . ولم ير الملك داعيا إلى البقاء في طيبة أكثر مما بقى ؛ فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد ، وتودع الجنود من طيبة وأهلها ، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد . وعند مطلع الفجر نفخ الجنود في الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ويسير في مقدمته الملك وحرسه ، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأسطول بقيادة أحمس إباننا يشق مياه النيل بوحداته القوية . توائبوا جميعا للقتال ، وشحذ النصر إرادتهم فجعلها كالحديد أو أشد صلابة . واستقبل الجيش في القبرى بحماسة دافقة ، وهرع الفلاحون إلى طريقه هاتفين يلوحون بالأعلام وسعف النخل . واجتاز سبيله آمنا فأضحى في شهور ودخلها بغير مقاومة ، ثم أمسى في قسى ففتحت له أبوابها وباتوا جميعا في قسى واستأنفوا المسير مع الفجر ، وجدوا في سيرهم حتى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادى الذى ينتهى بالمدينة ، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرعوس ، وذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة في هذا الوادى لعشرة أعوام خلت أو يزيد ، وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه ، وحار بصره في جنبات الميدان وهو يتساءل : ترى في أى مكان سقط ، ولاحت منه التفاتة نحو حور ،

فرأى وجهه ممتعاً وعينيّه مغرورتين بالدموع ، فاشتد به التأثر وقال له :  
— يا للذكرى المؤلة ...

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة :  
— كأنى أستمع إلى أرواح الشهداء التى يعمر بها جو هذا المكان المقدس ...  
فقال القائد محب :

— لشد ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا ..  
وجفف حور دمه وقال للملك :  
— فلنصل جميعاً يا مولاي على روح مليكننا الشهيد سيكننرع وجنوده  
البواسل .

وترجل أحمر وقواده وحاشيته وصلوا جميعاً صلاة حارة ..

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر ، فهتف الجنود  
لذكرى سيكتنرع طويلا . ثم زحف الجيش إلى تنترا دون أن يجد أدنى مقاومة .  
وكذلك أستر ديوس بوليس برقا . ثم سار في طريق أبيدوس وهو يتوقع أن  
يلقى الرعاة في واديهما ، ولكنه لم يعثر برجل من العدو ، فعجب أحس وتساءل  
قائلا :

— أين أبو فيس وأين جيوشه الجرارة ؟

فقال حور :

— لعله لا يريد أن يلقى عجلتنا بمشاته .

— وحتام تلور هذه المطاردة ؟

— من يعلم يا مولاي ؟ .. لعلها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس ، حصن  
الرعاة الحصين الذى شيدوا أسواره فى قرن من الزمان ، ولسوف يدمى قلب  
مصر قبل أن تخرقه جنودنا .  
وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص ، فدخلها دخول الجيش المظفر ،  
واستراح بها يومه ..

وكان أحس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة ، ولأنه كان  
يتوق إلى أن ينغمر فى القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزان قواده ، ولكن  
أبو فيس أبى عليه هذه الراحة ، فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة ، وقلبه  
ينازعه إليها على ما به من مودة عليها . وذكر أحلامه حين ظن أن أسعد الأقدار  
هى التى دفعتها إلى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنة من جنات الحب .  
ثم ذكر ما فعل به إباؤها وغضبها ، وكيف صيره مريضا محروما من أشهى الثمار

وهي ناضجة دانية ، وكانت رغبته إلى الحب قوية لا تقاوم فجرفت بتيارها الدافق عوائق التردد والكبرياء ، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل ، وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفة في ثوب من أثواب منف الرقيقة . وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلت تنظر إلى ما بين قدميها . وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحس رعدة تصدع صدره ، ونازعت الرغبة في أن يرمى عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتي من قوة وعزم ، ولكنها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة ، فلبث حيث هو جامدا ، ثم سأها :

— هل زارك الرسل ؟

فقالت بلهجة لا تتم عن عاطفة :

— نعم .

فجال ببصره في الحجرة حتى استقر على الصندوق العاجي وقال :

— لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق !

فقال باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء :

— شكرالك ..

فارتاح فؤاده وقال :

— وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى ..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة وأطبقت فمها

بحالة تدل على الحيرة ، فقال أحسن برقة :

— قال الرسل إن هذا العقد عزيز لديك ..

فهزت رأسها بعنف وكأنها تنفي عن نفسها تهمة وقالت :

— كنت أكثر من لبسه حقا لأن ساحرة القصر جعلته تعويذة تقى الضرر

والسوء ..

فقطن إلى تهريبها ، ولكنه لم يئأس وقال :

— ظننت أن ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية .

فتضرج وجهه بالاحمرار وقالت بغضب :

— لا أذكر اليوم نزوة الأمس ، ويجمل بك أن تحدثني كما ينبغي لعدو أن يحدث

أسيرة .

ورأى وجهها قاسيا جامدا فتجرع الخيبة مرة أخرى ، ولكنه أراد أن يكتم

عواطفه فقال :

— ألم تعلمي بأننا نضم نساء أعدائنا إلى حريم قصورنا ؟

فقال بحدة :

— إلا مثل ..

— هل تعودين إلى التهديد بالصوم ؟

— لا حاجة لي به بعد الآن ..

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهمكا :

— فكيف تدافعين عن نفسك ؟

فأرتته في كفها سلاحا صغيرا لا يزيد طوله عن ظفر ، وقالت باطمئنان :

— انظر ؛ هذا خنجر مسموم ، إذا خدشت به جلدي سرى سمه في دمي

فقضى على في لحظات ، دسه إلى الرسول في غفلة من رقباتك ، فعلمت أن أبى

يضع بين يدي ما أقضى به على نفسي إذا مسنى الضيم أو تحرش بى إنسان .

فغضب أحمر وعبس وجهه وقال :

— أهذا هو سر الصندوق ؟ .. سحقا لمن يطمئن إلى كلمة خنزير من الرعاة

ذوى اللحي القذرة . إن الخيانة تسرى في عروقكم مسرى الدم ، ولكن أراك

تخططين فهم رسالة أبيك ، فقد دس إليك هذا الخنجر لتقضى به على ..

فهزت رأسها كالساخرة وقالت :

— أنت لا تفهم أبو فيس ، إنه يأبى إلا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة ، أما

عدوه فسيقضى عليه بنفسه كما تعود أن يقضى على أعدائه .

فضرب أحس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد :  
— لماذا كل هذا العناء ؟.. فما أزهدي في جارية مثلك أعماها الغرور  
والكبرياء والطبع الفاسد ، لقد توهمتك فيما مضى شيئا ليس فيه من حقيقتك  
شيء ، فسحقا للأوهام جميعا ..  
وتحول الملك عنها وغادر المخدع ، وفي الخارج دعا كبير حراسها وقال له :  
— لننقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة ..  
وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهر الوجه ، وعاد في عجلته إلى  
المعسكر ..

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب . وفي فجر اليوم الثاني زحف الجيش بمجموعه الجرارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمائيس في يومين ، ولم يظهر حولها أثر للعدو فدخلتها الطلائع في سلام وتبعها الجيش على الأثر . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة وزفت البشرية إلى الملك أحس أن بانوبوليس في أيدي مصرية ، فصاح أحس :  
— لقد أجلى الرعاة من مملكة طيبة .

فقال حور :

— وسيجلون عن مصر قريبا .

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوا ظافرا على أنغام الموسيقى الحماسية ، ونفخ في الأبواق إعلانا للنصر ، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ، وانتشر الجنود في الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون . وشمل المدينة فرح جنوني خفق في كل صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليلة فاخرة قدمت في ختامها كؤوس مترعة بأنبيذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان ، وقال الملك لرجاله :  
— غدا نخترق حدود المملكة الشمالية وترفع على أسوارها أعلام مصر لأول

مرة منذ نيف ومائة عام .

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلا ..

ولكن في أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء ، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها ، فقال أحد رجالها إنهم رسل الملك أبوفيس إلى أحس ، فمضى بهم الجنود إلى المدينة ، وعلم



أحمس بأمر الرسل فذهب إلى قصر حاكم المدينة ، ودعا إليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب ، وجلس على كرسي الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس في ثيابهم الفخمة . وأذن للرسل بالدخول ، وكان المصريون لا يدرون ما يحمله الرسل هذه المرة فانظروا مشوقين . وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطا من القواد والحجاب في الثياب العسكرية والمدنية تسبقهم لحاهم المسترسلة ، ولم يكن يبدو على وجوههم أى التحدى والغلظة كما توقع أحمس ، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعا لإجلال واحترام حتى كاد الملك أن يعلن دهشته ، وقال كبيرهم :

— حياك الرب يا ملك طيبة ، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدل على شيء مما يثور في نفسه ، وقال بهدوء :  
— حياكم الرب يا رسل أبو فيس ، ماذا تريدون ؟  
وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب مليكهم ، ولكن زعيمهم قال :

— أيها الملك نحن رجال حرب ، في ميدانها نشأنا وعلى سنتها نعيش ، شجعان بواسل كما بلوتمونا ، تعجب بالبطل وإن كان لنا عدوا ، وننزل عند حكم السيف وإن كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك واسترددت عرش مملكتك فحق لك ملكها كما حق علينا تسليمها ، فهي مملكتك وأنت مليكها . وإن فرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحا شريفا يحترم الحقوق ويصل ما انتقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .  
وأصغى الملك إلى الرسل في هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، ثم نظر إلى لسان القوم وسأله متعجبا :

— أجيئتم حقا تنشدون سلاما ؟

فقال الرجل :

— نعم أيها الملك .

فقال أحس بصوت يدل على العزم والحزم :

— إني أرفض هذا السلام .

— ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟

فقال أحس :

— يا قوم أبو فريس .. لأول مرة مخاطبون مصرياً باحترام ، ولأول مرة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات العبودية . أتعلمون لماذا ؟ لأنكم غلبتم على أمركم . فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم ، وشاء إذا غلبتم ، أتسألوننى لماذا أصر على الحرب ؟ .. فالإيكم جوابى : إني ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة ، ولكنى عاهدت ربي وقومى على أن أحرر مصر جميعاً من نير الظلم والاستبداد ، وأن أعيد بها حريتها ومجدها ؛ فإذا أراد الذى بعثكم السلام حقاً ، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال .

فسأله الرسول بصوت غليظ :

— هذه هى الكلمة الأخيرة ؟

فقال أحس بثقة وقوة :

— هى ما افتتحنا به الكفاح ، وآخر ما نختمه به .

فقام الرسل واقفين ، وقال رئيسهم :

— ما دمت تريد الحرب فستكون حرباً ضروساً بيننا وبينكم حتى يقضى

الرب فيها بمشيئته .

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

ولبت أحسن في بانوبوليس يومين كاملين ، ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبو فيس ، فتقدمت جماعات قوية شمال المدينة ، والتحمت بقوات صغيرة للعدو فمزقت شملها ، ومهدت السبيل للجيش المعسكر في بانوبوليس ، فزحف أحسن على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا من قبل في عدده أو عدده ، وأقلع أسطول أحسن إبان الجبار بسفنه المظفرة . وفي طريق الزحف أبلغت العيون الملك أن جيش الرعاة معسكر في جنوب أفروديتوبوليس في جموع لا يحيط بها الحصر . ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة ، ولكنه سأل الحاجب حور قائلا :

— ترى هل ما يزال لدى أبو فيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟

فقال حور :

— ما من شك يا مولاي في أن أبو فيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، ولو كان لديه قوة منهم تستطيع أن تفصل في هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام ، على أن الرعاة قد قتلوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات ، فقلدوا الثقة والأمل ..

واستمر تقدم الجيش حتى دنا من معسكر عدوه ، ولاحت نذر المعركة في الأفق ، وتأهبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك . وصاح أحسن في القواد قائلا :

— سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام ونيف ؛ فلنضرب ضربة مائلة تضع حدا لآلام الملايين من إخواننا المستعبدين ، ولنقدم بقلوب شديدة لبأس .. فقد حبانا الرب بالعدد والأمل ، ونخذل عدونا بالانقراض واليأس وإنى لعلى رأسكم كما كان سيكتبرع ، وكما كان كاموس .

( كفاح طيبة )

وأمر الملك طلائعه بالمهجوم ؛ فانقضت كالنسور الكاسرة ، وتحفز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو ، فشاهد قوة من العجلات تقدر بمائتي عجلة ترد عليها المهجوم بمحاولة الإحداق بها . وكان الملك شديد الرغبة في القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس العجلات وانقض على العدو من جميع الجهات ، وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوات تفوقهم أضعافا ؛ فقفذ أبو فيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيد عجلاته المحدودة . ودارت معركة شديدة ، ولكن الرعاة لم ينفعهم شجاعتهم وقضى على قوتهم الراكبة ..

وبات الجيش ليلته .. وكان أحسن لا يدرى أيلقاه أبو فيس بمشاته مستئيسا أم يفر بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل في هيراكونبولس . ووضح الأمر في الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها والقسى والرماح في أيديها ، ورآهم حور فقال :

— الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاي ، ويتعرض أبو فيس بمشاته لبأس عجلتنا كما تعرض له مليكناسيكنترع في جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام . فانشرح صدر الملك ، وتعباً للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة و فرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجو أمامها سهاماً طائرة ، فاخترقت الصفوف في مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرق من العدو فيقتلون ويأسرون . وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحسن أن يفلت أبو فيس من يده ؛ فهاجم أفروديتوبولس كما هاجم الأسطول شطاطتها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود . ثم وافته العيون بأن أبو فيس فارق المدينة مع قوات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس ، وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين ، وقال حور للملك :

— لن تجدى المقاومة فتبلا بعد اليوم ، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب  
هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعه .  
ولم يأسف أحمدس طويلا ، وكان سروره بفتح بلدا من بلاد مصر التى حرم  
دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن  
كل شئ ..

وتقدم الجيش في زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدقون أن الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذل قرنين من الزمان ، وأن الذى يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحسن أن الرعاة قد فروا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم ؛ وسمع فى كل مكان طرقة أن أبو فيس مجد فى الحرب بجيشه وقومه إلى الشمال ، وهكذا استرد الملك فى شهر من الزمان : هبسيل ، وليكوبوليس ، وكوسى ، ثم بلغ أخيرا هرموبوليس ، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحسن وجنوده ، لأن هرموبوليس مسقط رأس الأم المقدسة توتيشرى ، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال فى بيتها العتيق ، فاحتفل أحسن بتحريرها ، واشترك فى الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعا ، ثم كتب الملك إلى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس ، ويضمنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه ، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر ؛ فدخل تتنوى وسينوولس وهينن ثم أرسنوى ، وانحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة غير عالىء بمشاق السفر وطول الطريق . وكان أحسن فى أثناء ذلك يحطم الأغلال التى يرسف فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة ، حتى قال له حور يوما : — إن عظمتك الحرية يا مولاي لا يضارعا شىء فى الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكك الإدارية ، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة ، ورسمت السبل التى ينبغى انتهاجها والسنن التى يجب اتباعها ، ووليت

الحكام الوطنيين ، فدبت الحياة مرة أخرى في شرايين الوادى ، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاما مصريين وقضاة مصريين ، فارتفعت الرءوس المنكسة ، ولم يعد الرجل يعيا بسمرتة ويعير بها . بل صارت موئله ومفخرته .. ألا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكنترع .

كان الملك يعمل مخلصا مجاهدا لا يعرف اليأس ولا التعب ، وكانت غايته التى لا يتحول عنها أن يرد إلى قومه الذين اختصرهم الذل والجوع والفقر والجهل ، العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينبج على كده وانهماكه من همومه الخاصة ، فعناه الهوى وأعيتة الكبرياء ، وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه : « لقد خدعت .. وما هى إلا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنه وجد روحه تسرى بالرغم منه إلى السفينة التى يعايشها الموج فى مؤخرة أسطوله ..

واطرز زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة ؛ فظن أحسن أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة في سلام ، وعلم أن أبو فيس تقهر بجيشه نحو الشمال الشرقى ؛ فدخل أحسن طيبة الشمال في حفل لم يشهد له مثيلا من قبل ، واستقبله الأهليون استقبالا حماسيا مهيبا ، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح . ومكث الملك في منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرام الثلاثة ، وصلى في معبد أبى الهول ، وقدم القرابين . فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلا استرداد طيبة ، وكان أحسن يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف ، فقال له القائد محب :

— لن يتعرضوا مختارين لبأس عجلاتنا بعد ما بلوها في هيراكونبوليس وأفروديتوبوليس .

وقال الحاجب حور بثقة :

— إن السفن لا تفتأ تأتى إلينا محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب ، وليس أمام أبو فيس إلا الاهتمام بأسوار هواريس .  
وتشاوروا جميعا في الوجهة التى يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ديب :

— لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر في الشرق وراء أسوار هواريس ، فينبغى أن نقصد إليه بقواتنا كاملة .

على أن أحسن كان شديد الحذر ؛ فأرسل جيشا صغيرا إلى الغرب عن طريق



لنوبوليس ، وسير آخر شمالا فى اتجاه أتريس ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون . وانطوت الأيام وهم يضربون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة ، ويكثلوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فريتص وضربوا فى الطريق المؤدى إلى هواريس ، وكانت أخبار أبو فيس نترامى إليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافا من البائسين . وقد أحدثت هذه الأخبار فى نفس الملك حزنا شديدا ، ورق لحال أولئك الأسرى المستذلين الذين سقطوا فى قبضة الرعاة القاسية ..

وأخيرا لاحت فى الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية ، فصاح أحس :

— هذا آخر حصن للرعاة فى مصر .

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينيه الضعيفتين .

— حطم أبوابه يا مولاي يخلص لك وجه مصر الجميل ..

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل ، ويمتد سورها شرقا مسافة ينقطع دونها البصر . وكان كثير من الأهليين يعرفون المدينة المحصنة ومنهم من عملوا داخلها أو في أسوارها ، فقالوا للمليكهيم : إنه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرة ، يليها خندق محيط يجرى فيه ماء النيل ، وإن بالمدينة حقولا شاسعة تكفى حاجة أهلها جميعا ، وجلهم جنود ما عدا المزارعين المصريين ، وتسقى المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربى وفي حمايته ، وتتجه شرقا نحو المدينة .

وقد وقف أحسن ورجاله جنوب الحصن المائل يقبلون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية ، بدت الجنود فى ذراها كالأقزام . وضرب الجيش خيامه ، وامتدت صفوف الجند بمحذاء السور الجنوبي ، وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى بعيدا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار ، وكان أحسن يستمع إلى أقوال الأهليين عن الحصن ، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه وعقله لا يبنى عن التفكير . وفى أثناء ذلك سير قوات راکبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة ، فاستولت عليها دون عناء ، وأضحى حصاره للحصن كاملا فى زمن يسير ؛ ولكنه كان ورجاله يعلمون أن الحصار عقيم ، وأن المدينة مستغنية بنفسها عما عداها ، وأن الحصار لو امتد أعواما لن يؤثر فيها شيئا ؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فى غير أمل ، وأهوال الجو وتقلباته . وفيما كان يحول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم فى الأمر . وقال لهم :

— أشيروا على ، فإنى أرى الحصار ضياعا للعمر وتبديدا للقوى ، وأرى

المهجوم ضربا من العبث وانتحارا صريحا ، ولعل العدو يتمنى أن نكر عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم في خنادقه .. فما رأى ؟

فقال القائد ديب :

— رأى يا مولاي أن نحاصر الحصن بجزء من قواتنا ، ونعتبر الحرب منتبهة عند ذاك ؛ ثم تعلن استقلال الوادي وتباشر واجبك كفرعون مصر المتحدة .

ولكن حور اعترض على الفكرة قائلا :

— وكيف تترك أبو فيس آمنا يدرّب رجاله ويجدد عجلاته ليكر علينا فيما

بعد ؟

فقال القائد محب بحماسة :

— لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا ، والكفاح بذل وفداء ، فلماذا لا نؤدى ثمن

هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة ؟

فقال القائد ديب :

— نحن لا نضن بنفوسنا ، ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها

خنادق ملأى بالماء ، تهلكة لجنودنا بلا ثمن ...

وكان الملك صامتا متفكرا ، فقال وهو يشير إلى النهر الجارى تحت سور المدينة

الغرى :

— إن هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع ، ولكنها قد تظمأ ...

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة ، وقال حور بذهول :

— كيف تظمأ هواريس يا مولاي ؟

فقال أحسن بهدوء :

— بأن نحول عنها مياه النيل ...

فنظر الرجال مرة أخرى إلى النيل وهم لا يصدقون أنه يمكن تحويل هذا النهر

العظيم من مجراه ، وتساءل حور :

— هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟

( كفاح طيبة )

فقال أحبس :

— لا يعوزنا المهندسون ولا العمال ...

— وكم يقتضينا من الوقت يا مولاي ؟

— عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام .. ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هي الوسيلة

الوحيدة . ينبغي أن يتحول النيل شمال فربتس إلى مجرى جديد يتجه غربا نحو

مهندس ، كي يختار أبو فيس بين الموت جوعا وظماً أو الخروج لقتالنا . وسيغفر

لي شعبي أنى عرضت من في هواريس من المصريين للخطر والهلاك . كما غفر لي

أنى فعلت ذلك ببعض نساء طيبة ...

وتهبأ أحسن للعمل العظيم فاستدعى مهندسى طيبة المشهورين ، وعرض عليهم فكرته فتوفروا على دراستها باهتمام وشغف ، ثم قالوا للملك : إن فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدهم بآلاف العمال . وعلم أحسن أن مشروعه لن يتحقق قبل مضى عامين فلم يركن إلى اليأس ، ولكنه بعث بالرسل إلى البلدان يحثون على التطوع فى العمل العظيم المنوط به تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه . وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتى اجتمع منهم عدد يكفى للبدء فى العمل ، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسا وضربه فى الأرض معلنا ابتداء العمل . فتبعته السواعد المفتولة التى تكد على سجع الأناشيد والأغاني .

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل ، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليومى تحت إشراف الضباط والقواد ، أما الملك فكان يزجى فراغه بالخروج إلى الصحراء الشرقية طلبا للصيد والطراد والسباق ، وفرارا من نوازع قلبه ونزوات هواه ، وفى فترة الانتظار هذه حمل إليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى قالت فيها :

« مولاي ابن آمون . فرعون مصر العليا والسفلى ، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز . إن دابور الصغيرة اليوم جنة من جنات السعادة والأفراح بفضل ما حمله إليها رسلك من أنباء النصر المبين الذى فتح به الرب عليك ، وإن انتظارنا اليوم فى دابور غير انتظارنا بالأمس ؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل ، وما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حررت من الهوان والعبودية ، وأن عدوها ومذلها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر خانعا القضاء الذى تقضى

به عليه ..

وقد شاء الرب القدير أن يحبوك — أنت الذى أذلت عدوه ، وأعليت كلمته — بعطفه ورحمته ، فرزقك بسلام نورا لعينيك ووليا لعهدك ، دعوته أمنتك تبركا بالرب المعبود ، وقد تلقيت يدي كما تلقيت أباه وجده وجد أبيه من قبل ، وقلبي يحدثنى بأنه سيكون ولى عهد مملكة عظيمة متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب .. » .

وخفق قلب أحسن خفقان الأبوة ودرت أضلعه الحنان ، وفرح فرحا عظيما أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت ، وأذن رجاله بمولد ولى عهده أمنتك فكان يوما مشهودا .

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنها حافلة بجلائل الأعمال التي اشتركت في إنجازها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم ؛ وكانوا جميعا لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنهم إلى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى ، ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدمها يخفق علم أبيض ، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب ؛ فسألوهم عن وجهتهم ؟ فقال كبيرهم : إنهم رسل الملك أبو فيس إلى الملك أحمس . وطير الحراس النبأ إلى الملك ؛ فعقد الملك مجلسا من حاشيته وقواده في سراحه ، وأمر بإدخال الرسل إليه . وجيء بالرجال يسرون في تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبو فيس ، وانحنوا بين يدي الملك وحياء كبيرهم قائلا :

— حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس قائلا :

— وحياكم يا رسل أبو فيس ... ماذا يريد ملككم ؟

فقال الرسول :

— أيها الملك ، إن رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنا فيهما السادة المعبودين ، ثم قضى علينا بالهزيمة فغلبننا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا ، ونحن أيها الملك رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة كما قدرنا على جنى ثمار النصر ..

فقال أحمس غاضبا :

— أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا المجرى الجديد الذى يحفره قومي فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم وقال :

— كلا أيها الملك ، نحن لا نستعطف أحدا ولكننا نقر بالهزيمة ، وقد أرسلنى مولاي لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء : فإما الحرب إلى النهاية ، وفى هذا الحال لن نتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا ، ولكننا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك فى ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلا كاره للحياة متعطش للانتقام .

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثم استدرك قائلا :

— وإما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ونحلى هواريس ، ونولى وجوهنا شطر الصحراء البتى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون ؛ وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل ، فعلم الملك أنه ينتظر جوابه ، ولم يكن الجواب حاضرا ولا مما تسعف فيه البدهاة ، فقال الرسول :

— هلا انتظرت حتى نقطع برأى ؟..

فقال الرسول :

— كما تشاء أيها الملك ، فقد أمهلنى مولاي نهار اليوم .



واجتمع الملك برجاله في مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم :  
— أشيروا على برأيكم ..

وكانوا جميعا على رأى بغير تشاور ولا اتفاق . فقال حور :

— مولاي لقد انتصرت على الرعاة في مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر  
ولأنفسهم بالهزيمة ، فمحوت بذلك آثار الهزائم التى ابتلينا بها في ماضينا  
الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرين فانتقمتم لقتلى قومك البائسين . فلا تثريب  
علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا ، ونوفر على أنفسنا بذلا للنفوس  
لا يدعو واجب إليه ، ما دام علونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، وسيحرر  
وطنا إلى الأبد .

وقلب الملك عينيه في وجوه قومه فوجد منهم حماسة إجماعية لقبول الفكرة .  
وقد قال القائد ديب : لقد أدى كل جندى من جنودنا واجبه كاملا ، وإن ارتداد  
أبو فيس إلى الصحراء هو أشد نكالا من ذوق الموت ...  
وقال القائد محب :

— إن همدنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة وإجلاؤهم عن ربوعه ؛  
وقد يسر لنا الرب ذلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذل باختيارنا .  
وقال أحس إيانا :

— إننا نشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من  
الرعاة .

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال :  
— نعم الرأى ، ولكنى أرى أن ينتظر رسول أبو فيس فترة أخرى حتى لا يظن  
إسراعنا إلى موافقته على الرأى السلمى لضعف أو ملل الكفاح .

وغادر الرجال السفينة وخلوا الملك إلى نفسه ، وكان على توافر دواعي الابتهاج له ككيبا ضيق الصدر . لقد كلل كفاحه بالفوز المبين وجثا له عدوه الجبار ، ومن الغد يحمل أبو فيس متاعه ويفر إلى الصحراء التي جاء منها قومه خاضعا لإرادة القضاء الذي لا يرد . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا وابتهاجه ليس كاملا ؟ . لقد حمت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك في السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا إذا رجع إلى قصر طيبة وحملت هي إلى بطن الصحراء المجهولة ؟ أتركها تذهب دون أن يتزود منها بنظرة وداع ؟ . وأجاب قلبه أن لا . وحطم أغلال التجلد والكبرياء ، وقام واقفا وفارق المقصورة ، وأخذ زورقا إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه : « مهما يكن من استقبلها فسأجد ما أقوله » . وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فحياه الحراس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة في الصدر على ديوان ، والظاهر أنها لم تكن تتوقع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والإنكار . وتفحصها أحسن بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهدده بها ، ورأى ملامحها كيوم حفرت في قلبه على ظهر السفينة الفرعونية ، فعرض شفته وقال لها :

— أنعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت إليه عينين لم تذهب منهما الدهشة وكأنها لا تدري بماذا تنجب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدل على شيء :

— أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فلاح في وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول :

— ألا تسمعين ما أقول ؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة . انتهى أسرك أيتها

الأميرة وأصبحت الحرة حقا لك .

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء في عينيها . فقالت بلهفة :

— أحق ما تقول ؟ .. أحق ما تقول ؟

— إن ما أقول حق واقع .

فأضأ وجهها وتورد خذاها ، ثم ترددت هنيهة وتساءلت :

— ولكن كيف كان ذلك ؟

— آه إنى أقرأ فى عينيك آمالك الطموح ، ألسـت تمنين أن يكون انتصار أبيك

هو الذى رد إليك حريتك ؟ ... إنى أقرأ هذا ، ولكنها هزيمته وأسفاه التى أنهت  
عبوديتك .

فعلقت لسانها ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باقتضاب بما عرض عليه رسول  
أبيها وما تم الاتفاق عليه ، ثم قال وعما قليل تحملين إلى أبيك وترحلين معه إلى  
حيث يرحل ، فمبارك عليك هذا اليوم .

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وجمدت أساريرها وغضت طرفها ، فسألها  
أحمس :

— أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك ؟

فقال :

— يجدر بك ألا تشمت بى ، فسنگادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

فقال أحمس بجزع ظاهر :

— لست أشمت بك أيتها الأميرة ، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا

الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة واليسالة .

فقالت بارتياح :

— شكرا لك أبيها الملك ...

وسمعا لأول مرة تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فأنثر وقال لها

وهو يتسم ابتسامة حزينة :

— أراك تدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

— لأنك ملك هذا الوادى دون شريك ، أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .  
فازداد تأثر الملك و لم يكن يتوقع أن تلين شكيمتها على هذا النحو .. ظن أنها  
تزداد بالهزيمة صلفا ، فقال بحزن :

— أيتها الأميرة ، إن ذكريات الدنيا سنجل اللذة والألم ، وقد بلوتم الحياة  
حلوها ومرها ولا يزال أمامكم غد .  
فقالت بطمأنينة عجبية :

— نعم أماما غد وراء سراب الصحراء المجهولة ، وسنلقى حظنا ببسالة ...  
سناد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينها الصفاء والركة ؛ فذكر  
صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان ،  
وكأنه يراها لأول مرة بعد ذاك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده وقال بمجد وجزع :  
— عما قليل يفرق بيننا البين ولن تبالى ذلك ، ولكنى سأذكر دائما أنك كنت  
معى فظة غليظة ...

فلاح فى عينها الحزن واقتربها عن ابتسامة خفيفة وقالت :  
— أيتها الملك إنك لا تعرف عنا إلا القليل ... نحن قوم الموت أرواح لنفوسهم  
من الهوان .  
— لم أرد بك الهوان قط .. ولكن غرنى الأمل إدلالا بمنزلة كنت أظنها لى  
عندك .

فقالت بصوت خافت :  
— أليس من الهوان أن أفتح ذراعى لآسرى وعدو أبى ؟ ..  
فقال بمرارة :

— إن الحب لا يعرف هذا المنطق ...  
فلاذت بالصمت ، وكأنها أمنت على قوله فتمتصت بصوت خافت لم  
يسمعه : « لا أؤمن إلا نفسى » . ورنّت بعينيهارنوا تائها ، وبحركة فجائية  
مدت يدها إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى

ووضعت حول عنقها بهلوء واستسلام . وتبعها بعينين لا تصدقان ، ثم ارتقى إلى جانبها غير متالك ، وأحاط عنقها بذراعه وضمها إلى صدره بحنون وعنف ، ولم تقاومه ألبتة ، ولكنها قالت بحزن :  
— حذار ... لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدج :  
— أمريديس .. كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟ .. بل كيف لا أكشف سعادتي إلا حين وشك زوالها ؟ .. كلالا لن أدعك تذهبين .  
فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له :  
— وماذا أنت فاعل ؟

— سأبقىك إلى جانبي ..  
— ألا تدري بما يقتضيه بقاءى إلى جانبك ؟ .. هل تجود من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك ؟  
فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتعم قاتلا وكأنه يحدث نفسه :  
— لقد استشهد أبى وجدى فى سبيل قومى ووهبهم حياتى ، فهل يضمنون على قلبى بالسعادة ؟

فهزت رأسها أسفا وقالت برقة :  
— أصغ إلى ياسفينيس ، ودعنى أدعك بهذا الاسم العزيز لأنه أول اسم أحبه فى دنياى ، ما من الفراق بد .. سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبهم ، ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى .  
فلتحمل كل منا نصيبه من الألم .  
فنظر إليها بذهول وكأنه يأبى أن يكون كل نصيبه من الحب أن يرضى بالفراق وتحمل الألم ، وقال لها برجاء :

— أمريديس ، لا تتعجلي اليأس وأشفقى من ذكر الفراق . فإن جريه على لسانك فى سر يعث الجنون فى دمي .. أمريديس .. دعينى أطرق جميع الأبواب

حتى باب أيك ، فما يكون لو طلبت إليه يدك ؟ .

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهي تمس يده برفق :

— وأأسفاه يا إسفينيس أنت لا تعي ما تقول ، هل تظن أني يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وترجع على عرشها ؟ .. أنا أعرف بأنى منك فليس ثمة فائدة ترجى ، وما من وسيلة سوى الصبر ...

وأصغى إليها ذاهلا وكان يتساءل : « أحق أن التى تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هى الأميرة أمريدس التى لم تكن الدنيا تسعها جنونا واستهتارا وكبرا ؟ » . وبدا لعينه كل شئ غريبا منكرا ، فقال بغضب :  
— إن أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرق بينه وبين من يحب .. » .

— أنت ملك يا مولاي ، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبا ، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيبا من شعاع الشمس ونسائم الهواء ، وأكثر تعرضا لثورة الريح واقتلاع الزوايع .  
فأن أحسس قائلا :

— آه ما أشقانى .. لقد أحبيتك منذ أول لقاء فى سفيتى ..

فخفضت عينها وقالت ببساطة وصدق :

— وطرق الحب قلبي فى ذلك اليوم عينه ، ولكنى لم أكتشفه إلا فيما بعد .  
وتيقظت عواطفى ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلنى إشفاق على دائى ، وبت ليلتى حائرة مضطربة لا أدرى ماذا أصنع بهذا المولود الجديد .. حتى غمرنى السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيى .  
— فى المقصورة ؟ . أليس كذلك ؟

— نعم .

— أواه .. كيف تكون حياقي بدونك .

— تكون كحياتي بدونك يا إسفينيس .

فضمها إلى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقهما يئس منهما  
شيخ الفراقى المائل أمامهما . وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع  
الأخير فى ساعة واحدة . وطرق كل سبيل من الفكر يبغي حلا فاعترضه اليأس  
والقهر ، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه . وأحس كل منهما أنه آن أن  
ينفصلا ، ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا قلبنا كشىء واحد .

وغادر أمّس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماءه ، وكان ينظر إلى شيء في كفه ويتمم قائلا : « أهذا كل ما تبقى لي من حيي ؟ » . وكانت سلسلة العقد الزمردي هي التي تبقت له من حبه ، أهدتها إليه الأميرة تذكارا واحتفظت بالقلب لنفسها . وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يحتلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة ، وقصد الملك إلى السراقد ودعا برسول أبو فيس وقال له :

— أيها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا . ولما كانت غاييتي أن أحرر وطني من سيطرتكم وهو ما رضيت به ، فقد اخترت الحل السلمي حقنا للدماء . وستبادل الأسرى في الحال ، ولكنني لن آمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس ، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء في تاريخ بلادى . فأخني الرسول رأسه وقال :

— نعم الرأي الذي رأيت أيها الملك ، فإن الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلا وتذبيحا .

فقال أمّس :

— الآن سأترككم لتبحثوا معا في تفاصيل التبادل والإجلاء .

وقام الملك فقام الجميع وقوفا وانحنوا له إجلالا ، فحياهم بيده وغادر المكان .



وفي مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى ؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالا ، وكانوا يهتفون للملكهم مسرورين ويلوحون بأيديهم ، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس إلى المدينة في سكون ووجوم .

وفي غداة اليوم الثاني بكر أحسن وحاشيته إلى هضبة قرية تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية ، وكانوا لا يخفون جذلمهم ، وتتألق وجوههم بنور الفرح والابتهاج ، وكان القائد محب يقول :

— عما قليل يأتي حجاب أبو فيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك ، كما أسلمت مفاتيح طيبة إلى أبو فيس قبل أحد عشر عاما .

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا إلى أحسن صندوقا من خشب الأبنوس رصت به مفاتيح هواريس ، فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر ، ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا في سكون وصمت .

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فلدوى صريرها في جنبات الوادى ، فتطلع أصحاب الهضبة صامتين . وبرزت أولى جماعات الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمها أبو فيس لاستطلاع الطريق المجهول ، وتبعها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغال والحمير وبعضهن يحملن في الهودج ، وقد استغرق خروجهن ساعات طويلة . ثم بدأ ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرها الثيران ، فعلم الناظرون أنه أبو فيس وآل بيته ، وقد خفق فؤاد أحسن لمراه وقاوم دمعة حرى

أحس انتزاعها من حناياه ، وتساءل : ترى فى أى مكان هى ؟ وهل تجد فى البحث عنه كما يجد فى البحث عنها ؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟.. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعها ؟ وتابع الركب بناظره لا يلتفت إلى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب ، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيهم الأفق وابتلعهم الغيب ...

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول :

— فى هذه الساعة الخالدة تسعد روح ملكنا سيكتنزع ويطلنا المجيد كاموس ، ويكفل كفاح طيبة التى لا تعرف اليأس بالفوز المين .

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتل أسوارها المنيعة ، وبات فيها حتى فجر الغداة ، وزحف أحبس بفرقة العجلات شرقا تتقدمه طلائعه فدخل تيس ودفنى ، وهناك جاءته العيون وهنأت بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر . فعاد الملك إلى هواريس ، وأمر أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون ؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كل فرقة ضباطها وقائدها ، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته ، ثم جنوا جميعا فى خشوع وصلوا للرب صلاة حارة . وختم أحبس صلاته بأن دعا ربه قائلا :

— أحمذك وأشكر لك أيها الرب المعبود ، فقد وصلت جناحى وثبت قلبى ، وأكرمتى ببلوغ الغاية التى استشهد فى سبيلها جدى وأبى ، فاللهم ألهمنى الصواب وأيدنى بالعزم والأمان لأضمد جراح شعبى ، واجعله خير عابد لخير معبود ..

ثم دعا أحبس رجاله إلى الاجتماع به فلبوا سريعا ، فقال لهم : — اليوم تنتهى الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا ، ولكن الكفاح لم ينته أبدا . وصدقونى أن السلام أكبر من الحرب حاجة إلى يقظة النفوس وتوثب العزائم ، فأعبرونى قلوبكم لنبعث مصر بعثا جديدا .

ونظر الملك فى وجوه رجاله قليلا ثم استطرد :

— وقد رأيت أن أبدأ كفاح السلام باختيار أعوانى المخلصين : لذلك أعهد إلى حور بالوزارة .

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبل يده ، فقال الملك :  
— وأرى أن سنب خير خلف لحور فى قصرى . أما ديب فهو رئيس الحرس  
الفرعونى .

ونظر الملك إلى محب وقال :  
— وأنت يا محب قائد جيشى العام .  
ثم التفت إلى أحس إيانا وقال :  
— وأما أنت فقائد الأسطول ، وسترد إليك ضياع أليك القائد الباسل بيبى .  
ووجه الملك كلامه إلى الجميع قائلا :  
— والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدى كل واجبه .  
وتساءل حور قلعا :  
— ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة ؟  
فقال أحس وهو بهم قائما :  
— بل ستقلع فى سفينتى إلى دابور لأزف بشرى النصر إلى أسرقى ثم أعود معها  
إلى طيبة ، فندخلها جميعا كما تركناها جميعا ...

— لن تجدى المقاومة قتيلا بعد اليوم ، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب  
هوارىس ليحتمى بأسوارها المنيعه .  
ولم يأسف أحس طويلا ، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم  
دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن  
كل شئ ..

وأقلعت السفينة الفرعونية في حراسة ثلاث سفن حربية ، وكان أحمس ملازما المقصورة ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين في الحزن والأسى .. واستغرقت الرحلة أياما ثم لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة ، ورسا الأسطول على شاطئها عند الأصيل ، وغادره الملك وحرسه في ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبيين ، وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم . وذاع في المدينة أن رسولا فرعونيا كبيرا جاء يزور أسرة سيكنترع ، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم ، فلما شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية في فناء القصر ينتظرون . وطلع الملك عليهم ، فعقدت الدهشة والفرح ألسنتهم ، وجثا رؤوم على ركبتيه ، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى ؛ فقبل خديها وجبينها ونظر فرأى أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعيها ، فضعها إلى صدره وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان وكانت جدته الملكة أحتوبى تنتظر دورها ؛ فدنا منها وقبل يديها وجبينها . وأخيرا رأى توتيشيرى .. أخيرة القوم وأعزهم ، توتيشيرى التى كللها المشيب وأذبل خديها الكبير ، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

— أماه وأم الجميع ...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهى ترفع إليه عينها :

— دعنى أنظر إلى صورة سيكنترع الحية .

فقال أحمس :

— اخترت يا أماه أن أكون الرسول الذى يشرك بالفوز العظيم ، فاعلمى يا

أماه أن جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبو فيس وقومه وطردهم إلى

الصحراء التى جاءوا منها وحرر مصر جميعا من عبوديتهم ، فحق وعد آمون وطابت نفس سيكنترع وكاموس ...

فتهلل وجه توتيشيرى وومضت عيناها الكليتان وقالت بفرح :  
— اليوم يفك أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كمهدى بها مدينة المجد والسيادة ، وأجد حفيدى على عرش سيكنترع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيث المحيطة .

وجاءت وصيفة الملكة السيدة راى تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فانحنى للملك وقالت :

— مولاي قبل طفلك الصغير وولى عهدك أمنحتب ..  
فلانت نظرة عينيه ودرت حناياه حنانا دافقا ، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به شفتاه المشوقتان ، وابتسم أمنحتب إلى أبيه وعابثه يديه الصغيرتين ...

ثم دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة والطمانينة ، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذكرون أيامهم ..

وحمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية ، ثم انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالى دابور جميعا . وقبل أن ترفع السفينة مراسيها ، دعا أحس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله :  
 — أيها الحاكم الأمين ؛ أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة ، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا إذ لا وطن لنا ، ومأوانا حين عز النصارى ومات الصديق ، ومدخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعى إلى الكفاح . فلا تنس صنيعها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرها شيئا نتمناها لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها ..

ثم أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشق طريقها نحو الشمال تحمل قوما تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها .. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة ، فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج إليها رجال الجنوب فى سفينة الحاكم شاو ، وأحاطت بها زوارق الأهالى يهتفون ويغنون . وصعد إلى سطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه . ثم انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطآن وتطوف بها القوارب ويصعد إلى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان . وما زالت السفينة تجد فى السير حتى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح فى الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد ، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق ، ويتجلى فى نظراتهم الحنين والوجد ، وتفيض أعينهم بدمع الشكران ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت : « طيبة .. طيبة » . وقالت الملكة أحوتبى بصوت

متهدج :

— رباه .. ما كنت أتصور أن يقع بصرى مرة أخرى على هذه الأسوار ..  
وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة في ربح مؤاتية حتى استطاعوا أن يروا  
جموعاً من الجنود وكبار القوم على الشاطئ ينتظرون ، فعلم أحسن أن طيبة  
تزجي أولى تحياتها لمخلصها ، فعاد إلى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش  
وجلسن حوله . وأدى الجنود التحية العسكرية للسفينة الفرعونية ، وصعد  
إلى سطحها رجال طيبة ؛ وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور ، والقائدان محب  
وأحسن إباناً ، ورئيس الحرس الفرعوني ديب ، وكبير الحجاب سنبل ، وحاكم  
طيبة توتى آمون . ثم كاهن طاعن في السن محترق الشعر شيبا يتوكأ على  
صولجانه ويسير بخطى وثيدة منحني القامة . وسجد الرجال جميعاً لفرعون وقال  
له حور :

— مولاي محرر مصر ومخلص طيبة وقاهر الرعاة ، فرعون مصر وسيد  
الجنوب والشمال ، إن طيبة جميعاً في الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحسن  
ابن كاموس بن سيكتنرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعاً أحر ما جمعت عليه  
صدرها من التحية والسلام ..

فابتسم أحسن وقال :

— حياكم الرب أيها الرجال المخلصون ، وحياء طيبة المجيدة مبدئى وغايتى ..  
وأوماً حور إلى الكاهن الجليل وقال :

— مولاي .. ائذن لى أن أقدم إلى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد  
آمون .

فنظر إليه أحسن باهتمام ، ومد له يده مبتسماً وقال بركة :

— يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر ..

فلثم الكاهن يده وقال :

— مولاي فرعون مصر وابن آمون ، مجدد حياة مصر ومحى سائر الأعظمين

من ملوكها . لقد كنت يا مولاي آليت على نفسي ألا أبرح حجرى ما دام فى مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلوا طيبة وقتلوا سيدها المجيد ، وأهملت نفسي فغزر شعر رأسى وجسدى ، وقنعت من الدنيا بلقعات أتبلغ بها وجرعات من الماء القراح كى أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع ، وما زلت حتى قبض الله لمصر ابنه أحبس ، فحمل على عدونا حملة صادقة ومزق شمله وطرده من بلادنا ، ففوت عن نفسي وأطلقت سراحى ، لأستقبل الملك المجيد وأدعوه ..

فاهتسم الملك إليه ، واستأذن الكاهن فى السلام على الأسرة فأذن له ، فقصد إلى توتيشيرى وسلم عليها ، وعدل إلى الملكة أحتوبى وكان من المقرين إليها على عهد سيكنرع ، ثم قبل ستكىموس ونيفرتارى ، ثم قال حور لمولاه .

— مولاي : إن طيبة تنتظر مولاه ، والجيش مصطفى فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأل أحبس قائلا :

— وما رجاء كاهنتنا الأكبر ؟

فقال الكاهن باحترام :

— أن يتفضل مولاي بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونى .

فقال أحبس مبتسما :

— ياله من رجاء فى تحقيقه الغنى والسعادة .



وغادر أحبس السفينة تتبعه الملكات ورجال مملكته ، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول ، فرد الملك تحيتهم . وصعد إلى هودج فرعونى جميل ، واعتلت الملكات هودجهن ، ورفعت الهودج وتقدمتها فرقة من الحرس الملكى ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى ، وتقدم الموكب الملكى نحو باب طيبة الجنوى الوسيط ، وكان مزينا بالأعلام والأزهار ، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب ..

اجتازت الهودج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية ، وقد نفخ في الأبواق حرس الأسوار ، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين . ونظر أحبس فيما حوله فرأى منظرا عجبا يذهل النفوس الرصينة ، رأى أهل مصر جميعا فى نظرة واحدة ، رأى أجسادا تحجب السبل والجدران والمنازل ، بل رأى أرواحا خالصة من العبادة والحب والحماسة . وضع الجو بالهتاف المتصاعد من القلوب ، وفتن الناس لرؤية الأم المقدسة فى مهابة الشيخوخة وجلال الكبر ، وحفيدها الباسل فى عنفوان القوة والشباب . وشق الركب طريقه كأنما يخوض بحرا لجيا عباها ، تتعلق الأنفس والأبصار ، فقطع السبيل إلى معبد آمون فى ساعات ..

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون ، ودعوا له طويلا وساروا بين يديه إلى بهو الأعمدة ، حيث قدمت القرايين على المذبح . وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردد فى القلوب فترة طويلة ، ثم قال الكاهن الأكبر للملك :

— مولاي ائذن لي في الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهم جلالتك .

فأذن له الملك ، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا يسيرا ، ثم ظهر الكاهن مرة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، فوضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال ، وتقدم نوfer آمون حتى وقف أمام أحمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

— مولاي ، إن ما أعرض على أنظاركم لهى أنفس مخلقات المملكة المقدسة ، عهد بها إلى لائتى عشر عاما خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبى لتكون فى مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع . أما التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكنترع يحفظ جثته المخنطة التى اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجل كل جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية ، وأما العرش فهو عرشه المجيد الذى أدى حقه وأعلن عليه كلمة طيبة الآية التى أثرت الابتلاء بأحوال الكفاح على السكون إلى ذل السلامة .

وأما هذا الصندوق الذهبى فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة ، وكنت أهديته لسيكنترع وهو خارج لقتال أبو فيس ، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه جميع أهل الوادى .. هذه يا مولاي ودائع بيبى المقدسة ، أحمد الرب أن مد فى عمرى حتى رددتها إلى أصحابها ، دامو للمجد ودام لهم .. ونحلت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونى ، ثم سجدوا جميعا وفى مقدمتهم الأسرة الفرعونية وصلوا خاشعين ..

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به ، وكان الصمت يشملهم جميعا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم ، وأحست توتيشيرى لأول مرة تخاذلا وخورا ، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظرها التابوت المحبوب ، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأم المقدسة ويسكن الآم قلبها ، فقال

لنوفر آمون :

— أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت في قدس الأقداس حتى يودع في مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه ..  
فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثنوى الرب المعبود ،  
وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج ، ودنا من أحسن في  
إجلال وتوج به رأسه المجدد ، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعا : « يعيش  
فرعون مصر » ..

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المثنوى المقدس فساروا جميعا ،  
وكانت توتيشيرى ما تزال تتوكأ على ذراع أحسن ، واجتازوا العتبة المقدسة التي  
تفصل بين الدنيا والآخرة ، وسجدوا للرب المقدس ولثموا الستائر المسدلة على  
تمثاله ، وصلوا صلاة الشكر والحمد أن هيا لهم الفوز وردهم إلى وطنهم  
ظافرين ..

وغادر الملك إلى هودجه وكذلك الملكات ، وحمل العرش على عربة كبيرة ،  
واستأنف الموكب سيره إلى القصر بين الجموع الهائفة الداعية .. المهللة المكبرة ،  
الملوحة بالأغصان النائرة الزهور ، فبلغوا القصر القديم عند الأصيل ، وكان التأثير  
قد بلغ من نفس توتيشيرى مبلغا كبيرا فاشتد خفقان قلبها واضطربت أنفاسها ،  
فحملت في هودجها إلى جناحها الملكي ، ولحقت بها الملكات والملك ، وجلسوا  
بين يديها قلقين ، ولكنها استعادت هدوءها وعادت بقوة إرادتها وإيمانها فاستوت  
جالسة ونظرت في الوجوه الحبيبة بخنان وقالت بصوت ضعيف :

— معذرة يا أبنائي ، لقد خانتى قلبي لأول مرة ، ولشد ما تحمل هذا القلب  
ولشد ما صبر ، فدعوني أقبلكم جميعا ، ففى مثل سنئ يعجل بلوغ الأمل  
بالنهاية ..

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لا يعرف النوم إلى أجفانها سبيلا ، فلبثت  
 ساهرة تلوح المشاعل في طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس في ميادينها ينشدون  
 ويهتفون ، وتسجع ديارها بالأغاني والألحان . في تلك الليلة لم ينم أحسن على ما  
 به من تعب ونصب . ونا به الفراش فخرج إلى الشرفة المطلة على حديقة القصر  
 الفيحاء ، وجلس على أريكة وثيرة في ضوء مصباح خافت ، وساحت روحه في  
 الظلام الجاثم ، وكانت أنامله تعبت بسلسلة ذهبية بحنو وإشفاق ، ينظر إليها بين  
 الغينة والفينة كأنما يستمد منها أفكاره وأحلامه ..

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابة نيفرتارى وكان الفرع ينفي الكرى  
 عن عينيها ، فظننت أن زوجها في مثل سرورها ، فجلست إلى جانبه جذلة  
 منشحة الصدر ، وانعطفت الملك إليها مبتسما فوق وقع بضرها على السلسلة في كفه  
 فتناولتها بدهشة وقالت :

— أهذا عقد ؟ .. ما أجمله .. ولكنه ميتور .

فقال وهو يجمع أشتات فكره :

— نعم .. فقد قلبه .

— وأسفاه .. وأين فقد ؟

فقال :

— لا أدري إلا أنه ضاع على غير إرادتي ..

فنظرت إليه بمودة وسألته :

— أكنت تنوى أن تهديه إلى ؟

فقال :

— إني أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل .

فقالت :

— فكيف تأسف عليه إذن ؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيا هادئا :

— إنه يذكرني بأيام الكفاح الأولى ، حين خرجت أطلب طيبة متخفيا في

ثياب التجار داعيا نفسي إسفينيس ، فكان فيما أعرض على الناس للشراء .. فيا

للذكرى الجميلة .. نيفرتارى ، أود أن تدعوني إسفينيس ، فهو اسم أحبه

وأحب عهده وأحب من يحبه ..

وأدار الملك وجهه ليخفي ما ارتسم عليه من التأثر والحنين . فابتسمت الملكة

بسرور ، ولاحظت منها نظرة إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك في

بطء ، فقالت وهي تشير بيدها :

— انظر إلى هذا المشعل ..

فألقي أحمر بصره إلى حيث تشير ، ثم قال :

— هذا مشعل في قارب يسبح قريبا من الحديقة ..

وكان صاحب القارب تعمد أن يدنو من حديقة القصر ليسمع أهله القادمين

جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعا ، فرفع عقيرته متغنيا في

سكون الليل يردد سجعه مزمرا :

« كم رقدت في غرفتي منذ سنين »

« أعاني. ألم داء وجيع »

« فعادني الأهل والجيران »

« وزارني العرافون والأطباء »

« فأعيا الداء أطبائي »

« حتى جئت أنت يا حبيبي »

« فبرع سحرك الطيب والرقى »

« لأنك أنت تعسرف مر دائى »

وكان صوته جميلا يأخذ السمع ، فأنصت أحس ونيفرتارى ، وكانت  
الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف وحنان ، وكان الملك ينظر إلى ما بين قدميه  
بعينين شبه مغمضتين ، تنوح فى قلبه الذكريات ..

( تمت )

## كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ — أول معرفتي به — سنة ١٩٤٣ م ؛ ذلك أن شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار ، حضر إلّى فى المكتبة التى أملكها — مكتبة مصر بالفجالة — وبصحبه شاب فى مثل سنّه ، فى حوالى الثلاثين من عمره ، وقُدّمه إلّى باسمه « نجيب محفوظ »<sup>(١)</sup> ، وقال لى : إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له .

وقُدّم إلّى نجيب محفوظ روايته « رادوبيس » ، وهى ليست أول رواية يكتبها ؛ فقد كتب قبلها رواية « عبث الأقدار » ، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى .

أخذت منه الرواية ، ووعدت أن أبهى فيها رأى بعد يومين .

وقرأت رواية « رادوبيس » فذهلت ! فهى مكتوبة بلغة عربية رصينة وبلغة ، وتختلف عن كل الروايات العربية التى ظهرت حتى ذلك الوقت ؛ فحادثها شائقة ، محبوكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة ، وتحكى قصة غرام الفرعون ، أو الملك مرزق الثانى بالراقصة الفاتنة رادوبيس ، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة ، وإنفاقها على نزواته الخاصة فى بذخ شديد ، حتى أطلق عليه الشعب لقب « الملك العايب » . وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحد أفراد الشعب .

والشئ بالشئ يُذكر ؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق — فيما بعد — أن

---

(١) قال لى شقيقى عبد الحميد : إن والدته نجيب محفوظ تعسرت فى ولادته تعسراً شديداً ، وأن الفرج جاء على يدي الطبيب المعروف د . نجيب محفوظ ، وأنها أطلقت على وليدها اسم نجيب محفوظ ، تيمناً به .

بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب في مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العاثر » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .  
ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيي في الرواية ، أبدت له استعدادي ، بل وترحيبي بطبعها ونشرها .

واعترضتني عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذي تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية في عنفوانها ، والورق معدوم تماماً من السوق .  
ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطاني ، وطبعت عليه الرواية — ٥٠٠ نسخة فقط — بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذي كان يخشى أن يعرضني للخسارة ، بالأستوعب السوق عدداً أكبر .  
وأخيراً وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصص همس الجنون ، كنفاح طيبة ، خان الخليلي ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ؛ طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

\* \* \*

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق — أكثر من ألف فرخ فولسكاب — وطلب مني أن أطبعها وأنشرها له في كتاب واحد .  
وكانت هذه الأوراق تحتوي على ثلاثة نجيب محفوظ .

وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقرأها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثاً مطوئاً في جريدة الأهرام ، بشر فيه بمولد روائي كبير في الأدب العربي ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .  
وكان رأيي أن طبع الرواية في كتاب واحد ، يحد من بيعها على نطاق واسع ،



واقترحت أن تُطبع في ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيي .  
وفعلًا ظهرت الثلاثية في ثلاثة كتب هي : بين القصرين ، وقصر الشوق ،  
والسكينة .

ويظهر هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائي في مصر ،  
بل في العالم العربي كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ في أن شخصيات قصصه ورواياته هي من  
واقع الحياة في الأحياء الشعبية بخاصة ، التي عاش طفولته يرتع بين ربوعها ،  
وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها  
وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمع إليهم ، وفي نفس الوقت يغوص في  
أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع في نفسه من كل ذلك في كتاباته .  
وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغي بإمعان إلى كل من  
يحادثه ، ويهتم بكل ما يُروى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولاً طريفاً ،  
أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك في ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع  
بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك في كتاباته ، حيث يظهر  
في المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ  
— مدًّا الله في عمره — يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية في الآداب هو اعتراف  
بقيمة الأدب العربي بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن  
موعده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار

رقم الإيداع ٢٩٠٣

الترقيم الدولي : ٤ — ٠٥٢ — ٣١٦ — ٩٧٧



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدي - الفيحاء



الثلث ٥٠٠ قرش

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه